

المقالة الثانية

مصطلحات هامة بين المعنى القرآني والبشري

د. طه جابر العلواني

إن الألفاظ القرآنية عموماً، تحمل عمق المفاهيم وفلسفتها التي لا مجال لاستبدالها، إذ لا ترادف في القرآن الكريم، ولهذا فإن لكل لفظة قرآنية أبعادها وعمقها الفلسفي باعتبارها مفهوماً، "والمفاهيم القرآنية ليست مفاهيم تجريدية، وإن كانت تعبر عن مثالية واقعية بحيث لا يتحقق دورها ووظيفتها إلا بتطبيقها، ومن ثم فإنه لا بد من التعامل معها باعتبارها مفاهيم حركية، تتضمن تحركاً نحو تغيير الواقع وإصلاحه وتحسينه دائماً، حيث إن من طبيعة المفاهيم أنها مندججة في الواقع مع بقاء الارتباط الوثيق بالمعيار الذي استمد منه، وهو (الوحي)، ومن هنا فالمفهوم القرآني يسعى دائماً نحو ترشيد الواقع وتوجيهه صوب المعيار". وهذا يبرز أهمية إعادة تحديد المفاهيم القرآنية وتميزها عن المصطلحات البشرية، كما إن بين تلك المفاهيم القرآنية علاقة تكاملية تشكل وحدة واحدة، فاستخدام أي منها يستدعي باقي المفاهيم، بالإضافة الى معاني التكاملية داخل المفهوم الواحد، وهي في الوقت ذاته ترفض أي مفاهيم مستحدثة لا تستند الى أصولها التكوينية وفلسفة معانيها المستبطنة في تلك المفاهيم، ولذا فإن محاولة غرس أي مفهوم من خارجها، يفقد هذه المنظومة أبعادها المتكاملة مما يحدث لها تشويه وتلبس يفقدها دلالاتها. إن مصدرية تلك المفاهيم هو الله سبحانه مما يمنحها القدرة على التداخل والتكامل بصورة متوازنة بحيث تبقى على خصوصية كل منها ومعناه دون أن تحول بين أن يحمل كل منها معاني المنظومة المفاهيمية كلها وهذا ما سيتبين لنا في استعراض معاني المفاهيم الآتية بإذن الله.

أ- التقليد: ¹ قلد: القلد الفتل، يقال قلدت الحبل فهو قليد ومقلود والقلادة المفتولة التي تجعل في العنق من خيط وفضة ونحوها، وبما شبه كل ما يتطوق وكل ما يحيط بشيء، يقال: تقلد سيفه تشبيهاً بالقلادة، وقلدته سيفاً يقال تارة إذا وشحته به وتارة إذا ضربت عنقه. وقلدته عملاً: ألزمته، قال تعالى {له مقاليد السموات والارض} أي ما يحيط بها. وهو قدرته تعالى عليها وحفظه لها.²

التقليد: "عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل معتقداً أن الحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الحجة والدليل"³ فالتقليد بذلك إبطال لمنفعة العقل، وما خلق العقل إلا للتأمل والتدبر والتفكير.⁴

¹ أنظر: الزبيدي، تاج العروس، مرجع سابق، فصل القاف/باب الدال. 474/2 وما بعدها.

² المفردات، مرجع سابق، ص 411.

³ الجرجاني، التعريفات،

فهل يعتبر المشركون وكل من زعم على الإبقاء على ما وجدوا عليه أبائهم هو من باب التقليد؟ وكيفية تعامل القرآن الكريم في مخاطبتهم في ذلك؟

لقد أنكر القرآن الكريم على هؤلاء الذين ألغوا دور العقل في عدة مواقف:

لقد أمر الله تعالى البشر بحسن التدبر والتفكير وعدم التقليد الأعمى لأي إنسان كائناً من كان من غير التفكير بالأدلة المقدمة من قبل صاحب الرأي، فيكون التحاكم مبني على الدليل ذاته وليس لصاحب الرأي، وهذا ما ناقشه الأنبياء جميعاً مع أقوامهم في محاولاتهم لفتح أبواب التأمل والتفكير في الأدلة المطروحة ابتداء من مطالبة الأنبياء أنفسهم بتقديم الأدلة والمعجزات على ما جاءوا به من مقولات وإطروحات.

قال تعالى {ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون، بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين} (الروم: 28-29)، {قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لك فأعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين، ولقد فضلنا لهم القول لعلهم يتذكرون} (القصص: 50).

1- عرض القرآن الكريم لفكرة المعارض ثم القيام بعملية تحليل عقلية للفكرة ومن ثم تقديم البديل:
أ- قال تعالى {وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون، قل: أولجئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا: إنا بما أرسلتم به كافرون} (الزخرف: 23-24).
ب- وقال تعالى على لسان يوسف: {ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون} (يوسف: 40).
ج- وقال تعالى على لسان إبراهيم: {إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين، قال: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين، قالوا: أجهننا بالحق أم أنت من اللاعبين، قال: بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن، وأنا على ذلكم من الشاهدين} (الأنبياء: 51-56).

د- أما نوع الخطاب في الآيات القادمة التي تضمنت محاوره عقلية منطقية بين إبراهيم وقومه تدعو القارئ الى التأمل في معانيها: {واتل عليهم نبأ إبراهيم، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون، قالوا: نعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين، قال: هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون، قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، فغنهم عدو لي إلا رب العالمين، الذي خلقتني فهو يهديني والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفيني، والذي يميتني ثم يحييني، والذي أطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين، رب هب لي حكماً وألحقي بالصالحين، وأجعل لي لسان صدق في الآخرين، وأجعلني من ورثة جنة النعيم، واغفر لابي إنه كان من الضالين، ولا تحزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله

4 أنظر: ابن الجوزي، تلييس أبليس، القاهرة، مكتبة المتنبى، د.ت، ص 81.

بقلب سليم، وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين، وقيل: أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون، فكبكوا فيها هم والغاوين و جنود أبلّيس أجمعون، قالوا وهم فيها يختصمون: تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين، وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين { (الشعراء:70-104).

2- إعادة عرض إدعاء المعارض مع إعادة قراءة المواقف بقراءة تحليلية {وإذ فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها أباءنا والله أمرنا بها قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لاتعلمون، قل: أمر ربي بالقسط، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وأدعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون، فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون { (المائدة:28-30)، { قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم، أسحر هذا ولا يفلح الساحرون، قالوا: أجنبتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه أباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين.....فما أمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين { (يونس:77-81).

ب- الأتباع:

تبع⁵: يقال تبعه وأتبعه قفا أثره، أو سار في أثره، وذلك بالأرتسام والأئتمار، يقال تبع المصلي الامام: حذا حذوه واقتدى به. عن علم بما سيتبع ثم إختيار وإصرار وعزم من المتبع وعلى ذلك قوله {فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} { قال: يا قوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون} (يس:20-21) {فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} {أتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ..} {واتبع ملة آباي إبراهيم واسحاق ..} {واتبع سبيل من أناب اليّ ثم إليّ مرجعكم فانبئكم بما كنتم فيه تختلفون}.

الإتباع ومعاني التخيير فيه بين الحق والباطل:

الإتباع يشارك التقليد في كونهما اتباع لشخص، ويفارق التقليد من حيث أنه يعتمد على ملاحظة الدليل والحجة فاتباع الربانيين لم يكن على أنه اتباع لأشخاصهم، بل كان لحجتهم فيما يقولون.

⁵ ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج27/8 وما بعدها.

2- الزبيدي، تاج العروس، مرجع سابق، 286/5 وما بعدها.

3- المفردات، مرجع سابق، ص72.

وفي جملة الآيات القادمة يتبين عملية استعراض للسبل المختلفة المعروضة (بين اتباع الهوى والعلم) ثم كيفية تحليل القرآن الكريم للفرضيات المطروحة ونتائجها كي تسهل عملية الإختيار تعالى: {ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير} (البقرة:120)، {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين} (البقرة:145)، {ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق} (الرعد: 37). {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل: أن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير} (البقرة:120). قال تعالى في عملية عرض لنتائج اتباع الهوى {وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار، قال الذين استكبروا: إنا كل فيها، إن الله قد حكم بين العباد} (غافر: 47-48)، قال تعالى {وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بمحاملين من خطاياهم من شيء، إنهم لكاذبون، وليحملن أثقاهم وأثقالاً مع أثقاهم وليستلن يوم القيامة عما كانوا يفترون} (العنكبوت: 11-12).

وتتضح معاني التخيير في الإلتباع المعتمدة على التفكير ثم نتائجه في المحاور الآتية: قال تعالى {إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير؟ قالوا: بلى، قد جاءنا نذير فكذبنا، وقلنا: ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير. وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير، فأعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير} (الملك: 7-11). وكذلك في قوله تعالى {فاعبدوا ما شئتم من دونه، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل، ذلك يخوف الله به عباده، يا عباد فاتقون، والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد: الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب} (الزمر: 15-18).

وعلى هذا تتضح معاني الإلتباع في التخيير المقرون بحسن التفكير والتأمل في الدليل المعروض مع تحديد الإختيار بعد الدراسة والنظر في قوة أو ضعف تلك الأدلة المطروحة.

2- مفردات منهج الإلتباع السليم:

أ- قال تعالى في رسم منهج الإلتباع السليم المعتمد على العلم لا الهوى والظن كما جاء على لسان إبراهيم: {يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً} (مريم: 43)، وجاء على لسان يوسف عليه السلام قال تعالى: {قال: لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. واتبعت ملة أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون} (يوسف: 37-38)، قال تعالى {وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب، فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لإعدل بينكم الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا واليه المصير}. (الشورى: 14-15).

ب- عرض وتحليل الآراء المطروحة ومحامتها الى العلم، ثم تنفيذ ما كان منها معتمداً على الظن والهوى: قال تعالى {إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وأبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى} (النجم:23)، {وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى} (النجم:28-30). {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون} (الجاثية:18)، {ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين} وقال تعالى {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم. والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً} (النساء:26-27). قال تعالى {وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيئ، إنهم لكاذبون، وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليستلن يوم القيامة عما كانوا يفترون} (العنكبوت:11-12).

3- اتباع سبيل الأنبياء:

أن اتباع الرسل يسري عليه نفس مفردات منهج الإتيان القرآني المقترح من تحري العلم فيما يطرح من قضايا: قال تعالى على لسان إبراهيم: {يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً} (مريم: 43)، {قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين} (يوسف:108).
حرية الاختيار للمتبع والتي يظهر جانب من معالمها في قصة هارون مع قومه: {ولقد قال لهم هارون من قبل: يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا: لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى، قال: يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن، أفعضيت أمري} (طه:90-94).

عرض وتحليل نتائج الإختيار: {والذين آمنوا واتبعتم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم، وما ألتناهم من عملهم من شيئ، كل أمراً بما كسب رهين} (الطور:21)، {وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون} (لقمان:15)، {قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين} (آل عمران:95).

4- اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

أمر الله تعالى لرسوله باتباع ما أنزل اليه: {اتبع ما يوحى اليك من ربك لا اله إلا هو وأعرض عن المشركين} (الأنعام:106)، {واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله والله خير الحاكمين} (يونس:109)، {واتبع ما يوحى اليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً} (الأحزاب:2).
القرآن الكريم: {فإذا قرأناه فاتبع قرآنه} (القيامة:18)، {ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين} (النحل:123).

أمر الذين آمنوا بمحمد رسولا باتباع ما أنزل اليه في عملية عرض وتحليل علمية للقضايا المطروحة للإتيان مع طلب التفكير والتدبر في الأمر:

قال تعالى {قل: تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون، ثم اتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شئى وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون، وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون، أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين، أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة، فمن اظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذي يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون {الانعام: 151-165}.

{اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون} {الأعراف: 3}، {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم} {آل عمران: 31}. {الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون. قل: يا أيها الناس. إني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت، فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون} {الأعراف: 157-158}.

قال تعالى {ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين، فلما جاءهم الحق من عندنا، قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى، أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل، قالوا: سحران تظاهرا وقالوا: إنا بكل كافرون، قل: فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه، إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين، ولقد فصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون} {القصص: 47-51}.

{يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً} {النساء: 135}، {يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين} {الأنفال: 64}.

ويقال اتبعه إذا لحقه: {فاتبعوهم مشرقيين..} () {ثم اتبع سبباً....} {وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة..} {فاتبعنا بعضهم بعضاً}.

أتبع: في الماشية ونحوها صارت ذات تبع، فهي متبع، ومتبعة التي يتبعها ولدها. والتببع الذي لك عليه مال، وتتابعه أي تطالبه به. والتببع أيضاً: التابع، قال تعالى {أم أمنتكم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتهم، ثم لا تجدوا علينا به تبيعاً} {الإسراء: 69}

ج- الاقتداء:

القود: نقيض السوق، يقود الدابة من أمام السوق من خلف. وقاد البعير وأقتاده: معناه: جره خلفه. ومن المجاز أقاد فلان إذا تقدم، وهو ما ذكر كأنه أعطى مقادته الأرض فأخذت منها حاجتها. ومن معانيه كذلك القفو كما جاء في قوله تعالى (وأنا على آثارهم مقتدون) فلفظة آثارهم تشير إلى معاني القفو حيث أنه ما وضع رجله في موضع إلا قفا أثره. والقائد: القائد من الجبل أنفه، وكل مستطيل من أرض أو جبل على وحه الأرض. ومن معاني القائد: أعظم فليجان الحرث الأول من بنات نعش الصغرى وهي من الكواكب الشامية وهي أقرب مشاهير الكواكب من القطب الشمالي وعددها سبعة.

والاقتداء يحمل معاني الاتباع في التعامل مع الحجج والأدلة المقدمة من قبل القائد الذي يطلب الاقتداء به سواء أكان نبي أو داع للخير أو نحوه، قال تعالى (...).وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم... أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بما هؤلاء فقد وكلنا بما قوماً ليسوا بما بكافرين، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده، قل لا أسألكم عليه أجراً، إن هو إلا ذكرى للعالمين) (الأنعام: 74-90).

فالإقتداء هنا يعتمد على تقييم الأدلة المطروحة وقوة حجيتها في الدرجة الأولى قبل الاقتداء بأي إنسان وهذا ما حرص القرآن الكريم في تعليماته على تنفيذ أقوال المقتدين بدون تقييم للحجج وإنما هو اتباع أعمى للشخص لا للفكر ولذلك فقد سمي هذا النوع من الاقتداء "باتباع الهوى" قال تعالى {وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قال: أو لو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا: إنا بما أرسلتم به كافرون} (الزخرف: 23-24).

د- الأهداء:

قال الأصفهاني: الهداية: دلالة بلطف ومنه الهدية، وهوادي الوحش أي متقدماتها الهادية لغيرها. وخص ما كان دلالة بهديت وما كان إعطاء بأهديت نحو أهديت الهدية وهديت إلى البيت إن قيل كيف جعلت الهداية دلالة بلطف، وقد قال تعالى {فاهدوهم إلى صراط الجحيم} {ويهديه إلى عذاب السعير} قيل ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم مبالغة في المعنى كقوله {فيشرهم بعذاب أليم}.

وهداية الله للإنسان على أربعة أوجه:

1- الهداية التي عمّ بجنسها كل مكلف من العقل والفتنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شعبقدر فيه حسب احتمالها كما قال تعالى {ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى} (طه: 50).

2- الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحوه وهو المقصود بقوله {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا..}

3- التوفيق الذي يختص به من أهتدى وهو المعنى بقوله تعالى {والذين اهتدوا زادهم هدى} وقوله {ومن يؤمن بالله يهد قلبه} {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم..} وقوله {والذين جاهدوا فينا لنتهديهم سبلنا..} {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى..} {فهدى الله الذين آمنوا..} {والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}.

4- الهداية في الآخرة الى الجنة والمعنى بقوله تعالى {سيهديهم ويصلح بالهم..} {ونزعنا ما في صدورهم من غل.. الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} .)

وهذه الهدايا الأربعة مترتبة، فإن لم تحصل له الأولى لا تحصل الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن حصل له الرابع حصل له الثالث قبلها. ثم ينعكس فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا الثالث، والإنسان لا يستطيع أن يهدي أحداً إلا بالدعاء وتعريف الطرق دون سائر أنواع الهدايا والى الأول أشار تعالى {وإنك لتهدي الى صراط مستقيم} {يهدون بأمرنا..}، {ولكل قوم هاد} وإلى سائر الهدايا أشار تعالى {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء}.

وكل هداية ذكر الله عز وجل انه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة وهي التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة كقوله تعالى {كيف يهدي الله قوماً...والله لا يهدي القوم الظالمين}.

وكل هداية نفاهاها الله عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق والجنة كقوله {ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء}، {ولو شاء لجمعهم على الهدى} {وما أنت بمهاد العمي عن ضلالتهم} {أن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل..} {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} {أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين}.

وأما قوله {من يهد الله فهو المهتد..} أي طلب الهدى ومتحريه هو الذي يوفقه الله تعالى ويهديه الى طريق الجنة لا من ضاده فيتحرى طريق الضلال والكفر كقوله {والله لا يهدي القوم الكافرين} وقوله {والله لا يهدي من هو كاذب كفار} الكاذب الكفار هو الذي لا يقبل هدايته، فإن ذلك راجع الى هذا وإن لم يكن لفظه موضوع لذلك، ومن لم يقبل هدايته لم يهده.

وأما قوله تعالى {إنا هديناه السبيل، إما شاكراً وإما كفوراً} (الإنسان:3) {وهديناه النجدين..} (البلد:10)، {وهديناهما الصراط المستقيم} فذلك إشارة الى ما عرف من طريق الخير والشر بالعقل والشرع كما في قوله {فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة} (الأعراف:30)، {ومن يؤمن بالله يهد قلبه} (التغابن:11)، فهو إشارة الى التوفيق الملقى في الروح فيما يتحراه الانسان وإياه عنى بقوله تعالى {والذين أهدنا زادهم هدى وآتاهم تقواهم} (محمد:17)، وعدي الهداية في مواضع بنفسه وفي مواضع باللام وفي مواضع بإلى، قال تعالى {ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم} (وأجبتناهم وهديناهم الى صراط مستقيم} {هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتحشى}، {وإنا ما عدى بنفسه نحو {وهديناهم صراطاً مستقيماً} {أهدنا الصراط المستقيم} {ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً}.

ولما كانت الهداية والتعليم تقتضي شيئين: تعريفاً من المعرف، وتعرفاً من المعرف، وبهما تتم الهداية والتعليم فإنه متى حصل البذل من الهادي والمعلم ولم يحصل القبول صح أن يقال لم يهد ولم يعلم إعتباراً بعدم القبول، وضح أن يقال هدى وعلم اعتباراً ببذله، فعن كذلك صح أن يقال إن الله تعالى لم يهد الكافرين.. {فاستحبوا العمى على الهدى} والاولى حيث لم يحصل القبول المفيد فيقال هداه الله فلم يهتد {وإنها لكبيرة إلا على الذين هدى الله} فهم الذين قبلوا هداه. وأما قوله تعالى {إهدنا الصراط المستقيم} فقد قيل أنه عنى به الهداية العامة التي هي العقل وسنة الأنبياء، وامرنا أن نقول هذا بألستنا وإن كان قد فعل ليعطينا

بذلك ثوابا كما في أمره لنا أن نصلى على محمد وإن كان قد صلى عليه بقوله {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}.

والهدى والهداية في موضوع اللغة واحد ولكن الله قد خص لفظة الهدى بما تولاه واعطاه واختص هو به دون ما هو للانسان نحو {هدى للمتقين}.

والاهتداء: يختص بما يتحراه الانسان على طريق الاختيار إما في الامور الدنيوية أو الاخروية، قال تعالى {وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها} وقال {إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا} (النساء:) ، ويقال ذلك لطلب الهداية نحو {وإذ أتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون} {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد أهدوا}.

ويقال المهتدي لمن يهتدي بعالم نحو {أولوا كانوا آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون} تنبيها الى أنهم لا يعلمون بانفسهم ولا يقتدون بعالم وقوله {فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها} فان الاهتداء هنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية ومن الاقتداء ومن تحريها، وكذا قوله تعالى {وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون} وقوله {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى} فمعناه ثم أدام طلب الهداية ولم يفتر عن تحريه ولم يرجع الى المعصية. وأما قوله تعالى {الذين أصابتهم مصيبة الى قوله تعالى {وأولئك هم المهتدون} أي الذين تحروا الهداية وقبلوها وعملوا بها⁶.

هـ- الطاعة:

معنى الطاعة⁷: الطوع نقيض الكره، وهو الإنقياد وبيضاده الكره قال تعالى {أتبيننا طوعاً أو كرهاً...} {وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً أو كرهاً} طاعه يطوعه وطاعه، رجل طبع أي طائع، وفي التهذيب: قد طاع له يطوع إذا أنقاد له، بغير ألف، فإذا مضى لإمره فقد أطاعه، فإذا وافقه فقد طاعه، والمطاعة: الموافقة. وأطاع له المرتع: إذا اتسع له المرتع وأمكنه الراعي، قال الأزهري: وقد يقال في هذا الموضع طاع، وأطاع له المرعى: أتسع وأمكن الراعي منه، وقد يقال في هذا المعنى طاع له المرتع، وأطاع التمر: حان صرامه وأدرك ثمرة وأمكن أن يجتنى، وأطاع النخل والشجر إذا أدرك.

⁶ المفردات، ص 538-541.

⁷ أنظر: الاصفهاني: المفردات، ص 310.

2- ابن منظور، لسان العرب، ج 240/8 وما بعدها.

والطاعة: مثله لكن أكثر ما تقال في الأئتمار لما أمر والارتسام فيما رسم، قال تعالى {ويقولون طاعة وقول معروف} أي أطيعوا وقد طاع له يطوع وأطاعه يطيعه، قال تعالى {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول} {ومن يطع الرسول فقد أطاع الله....} {ولا تطع الكافرين..} وقوله في صفة جبريل: {مطاع ثم أمين} (التكوير:21).

الطاعة تستدعي كذلك تفكر وتدبر وتأمل في الأمر من الطائع تدفعه لمعرفة الأسباب منطقياً التي تحتفي وراء تقديم الطاعة، أما مرحلة الموافقة على قبول تلك الطاعة في رغبة منه أو رفضها، فلا تتم إلا بعد التفكير والتأمل في القضية المطروحة، وإلا فمن الصعب استئناف القيام بشروط الطاعة على الوجه المطلوب. والإنسان في ذلك مخير في كل حال من الحالات التي تستدعي فيها الطاعة بين الرفض والقبول. وأما النوع المرفوض من الطاعة هي الطاعة العمياء التي تتجاهل العقل والتفكير والتدبر في الأمر المعروض ونتائجه مع القدرة على بذل الجهد في التفكير في الأمر ثم إتخاذ القرار في الطاعة والتطوع في الأصل: تكلف الطاعة، وهو التعارف: التبرع في ما لا يلزم كالتنفل، قال تعالى {فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له} (البقرة:184).

طاعة الأنبياء والرسول:

أن من شأن الرسل أن يطاعوا وقد جعل سبحانه من طبيعة الرسالات الإلتزام والشرعية، والرسالة تستدعي الطاعة، وقد جعل سبحانه في النبوة سراً أن يطاع المرسلون قال تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) وذلك أهم فرق بين الفلسفة والنبوة، لأن الدليل قام على صدقهم وإن في طبيعة أفعالهم معاني فقه التدبير فهم يحملون الرسالة ويطبقون ما فيها من تعاليم إلهية. فالنبوة بطبيعتها تستدعي الطاعة والإلتزام من الناس وتضفي على طبيعة تصرفات وتعاليم الأنبياء والمرسلين من الشرعية والإحترام ما يستدعي تلك الطاعة ويجعلها أيسر على المكلفين ولذلك فإننا مطالبون بالتأسي والإهتمام بأفعالهم مع حسن النظر في حججهم و بذل الجهد في إدراك معانيها المقرونة بتبيان الحكم والمقاصد من وراء تلك الطاعة، والتي تستبطن معاني التأمل والتدبر والنظر في المقدمات والنتائج لتلك الطاعة.فالتقليد الأعمى مبني على الرفض ولا يحق لعالم كائناً من كائن بمطالبة الناس بتقليده ما لم يقدم الحجة على ما يذهب إليه ويقول به، ولقد ضرب علماءنا أمثال أبي حنيفة وغيره في ذلك مثلاً بقوله (هذا أحسن ما وصلنا إليه فمن وجد خيراً منه فليأخذ به. ولقد نقل عن ابن حزم⁸ وغيره من العلماء بأن على العامي أن يجتهد في

8 أنظر: ابن حزم، إحكام الأحكام،

د. طه جابر العلواني، الإحتهاد والتقليد،

التمييز بين العلماء ومذاهبهم في محاولة معرفة ما يرجح الأخذ بقول هذا العالم أو ذاك من سعة العلم والتقوى والإلتزام بالدليل وذلك يتطلب منه التأمل في الذاهب والنظر في الأدلة وبذلك فلم يستثن سبحانه حتى رسله في طاعتهم من عرض تحليلي لمقدمات ونتائج تلك الطاعة. وليس من المتوقع في طاعتهم مطلقاً أن تكون طاعة عمياء خالية من التفكير والتدبر والتأمل بما يأتون به من مبادئ وقواعد وأحكام وها هي آيات القرآن الكريم في ذلك:

قال تعالى: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله سمیعاً بصيراً، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فرددوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً} (آل عمران:59)، وقال تعالى {المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم} (التوبة:71)، {وأعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون} (الحجرات:7)، {قالت الأعراب: أمانا قل: لم تؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم} (الحجرات:14). وقال تعالى {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً} (الأحزاب:71)، {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً} (النساء:69)، {قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين} (آل عمران:32)، {وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون} (آل عمران:132).

قال تعالى {ولما جاء عيسى بالبينات قال: قد جئتمكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه، فاتقوا الله واتقوه} (الزخرف:63)، {....ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وجئتمكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعوا} (آل عمران:50). {إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون، إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله واطيعوا، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين، فاتقوا الله وأطيعوا} (الشعراء:106-110).

فالأصل في الرسل أنهم منادج حية تقتدي بهم البشرية في تجسيدهم لقيم الدين ومقاصده وتعليمهم لفقته التدين والممارسة الفعلية والعملية لتلك القيم والمفاهيم، وقد أرسل الرسل من البشر كي يكونوا نماذج وأمثلة ونجوماً يهتدي الناس بسيرهم وسلوكهم وتصرفاتهم التي تعد أهم وأدق وأقرب تطبيق عملي لتعاليم الدين وتحقيق لمقاصده وبناء القواعد فقه التدين الذي يمكن الناس كافة من القدرة على تنزيل قيم الدين في الواقع الإنساني المعيش.

هـ- التأسى:

أسا: الأسوة كالقدوة والقدوة: هي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره ، ولم تذكر الأسوة في القرآن إلا في ثلاث مواضع: قال تعالى {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً} (الأحزاب:21) {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براءوا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده لآل قول إبراهيم لاستغفرن لك وما أملك لك من الله شئ ربنا عليك توكلنا

وإليك انبنا وإليك المصير { (المنتحنة:4)، وقال { لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد { (المنتحنة:6).

و- التأسى بالنبى وآلياته:

وإذا كان القرآن الكريم قد اشتمل على كل ذلك الخير وما يزيد عليه فإن الإنسان في حاجة ماسة إضافة إلى تلاوة العلم والحكمة، واغترافهما من كتاب الله-تعالى- وفقاً الى النموذج المائل والقذوة المنهاجية الكاملة التي تزوده بمنهاجية التعامل مع القرآن الكريم، وتجسد أمامه قيم القرآن وتعاليمه، لتؤكد أن تلك التعاليم عملية، وأنه في مقدور البشر تطبيقها والقيام بها وتريه أفضل وأتم وأبين وأوضح أنواع التطبيق الكفيل بتزويد الإنسان "بفقه التنزيل" وفقه التدين لئلا تلتبس عليه السبل، وتختلط عليه الافهام. فكانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم- المهيمنة على سنن النبيين والمصدقة عليها. وهي الحكمة⁹ المبينة بأفعال وأقوال وأحوال وتقريرات رسول الله صلى الله عليه وسلم- لقيم القرآن، والموضحة لسائر نواحي "القذوة المنهاجية" ومنهاج التأسى السليم"، فالسنة بجملتها هي البيان والتجسيد العملي في الواقع البشري المتحرك لقيم وتعاليم القرآن، ولتجارب وسنن وسير الأنبياء جميعاً.

{ولكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً} (الاحزاب: 21)، وقال { ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب¹⁰ } (الحشر: 7)، {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فان الله لا يحب الكافرين} آل عمران: 31-32)، {..لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقره وتسبحوه بكرة وأصيلاً. إن الذين يباعدونك إتما يباعدون الله يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً... إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليمًا...} (الفتح:1-29)¹¹.

⁹ الحكمة عند الإمام الشافعي،

¹⁰ هذه الآية من أكثر الآيات شيوعاً على السنة المستدلين على أن السنة كالقرآن في وجوب الإلزام المطلق بها دون كثير استفسال، وكما يتضح من الآية أنها تتعلق بالفئ وما يؤتية الرسول صلى الله عليه وسلم منه لمن معه وما يحجبه عنهم، والآية لها سبب نزول (.....) ونحن لا نعي أن نقول بشئ يضعف حجية السنة إذ لا يسع مسلماً أن يذهب بعدم الإعتراف بحجية السنة، ولكن أردنا أن نبين ضرورة الاستدلال بالدليل حين يستدل به على الوجه المقبول علمياً ومنطقياً بأحد أمواع الدلالة مطابقة أو تضمن أو إلتزام وهذه الآية في منطوقها هي في قضية الغنائم مطابقة وتضمناً. وأما إذا قيل بإها تدل على موضوع الحجية بطريق الإلتزام فإنه استدلال ضعيف وعقلي وليس نصياً ولدينا دلة أقوى على الحجية منه. مثل قوله تعالى (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله)

¹¹ واتلوا كذلك سورة محمد وسورة الحجرات، والمجادلة، والحشر، والمنتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، والتحريم، وسورة النور، سورة الاحزاب، وغيرها....

الخلاصة:

فهل التأسّي يستلزم مرتبة فوق الإتياع، أم هي مراحل متكاملة تكمل بعضها بعضاً كي تصل الى تحقيق المقاصد والغايات المرجوة في استيعاب وإدراك مهام الرسل وأمكانية تطبيقها على واقع البشر في مختلف الأزمان؟ وما الذي سيني على عملية التفريق بين تلك المفاهيم، أو محاولة التأكيد على البناء التكاملي بينها، وخاصة أنه لا يظهر القرآن الكريم فواصل بينها، أكثر من عرض قاعدة عامة للانسان المخاطب وهي التفكير والتدبر والتأمل في المنظومة المطروحة من قبل الرسل، كي يتمكن من الإبداع الواعي في الفهم والتنفيذ.

وكان التأسّي يستلزم مرتبة فوق الإتياع، فالإتياع يتصور في نحو العبادات، ولكن فيما يتجاوز العبادات كما في مجالات المعاملات ونحوها فيحتاج المرء فيها الى التجريد.

والتأسّي يقوم على النظر في أقوال وأفعال المتأسّي به على أها كلها مسببة ومعللة ومقرونة بحكم فلا ينظر إليها في جزئياتها، وإنما ينظر إليها على أنها أمور يمكن أن تدرس وتحلل، وقوانين كلية تنظم جزئياتها وتمكن المتأسّي من البحث في الغايات والمقاصد في الأفعال والأقوال بعد وضعها في تلك الأطر الكلية، وقد يحتاج الإتياع والأقتداء الى المشاهدة الحسية.....؟

عصمة الأنبياء¹²:

وتتعلق عملية قبول السنن والإحتجاج بها، والتأسّي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الايمان بعصمته عليه الصلاة والسلام كعصمة من سبقه من النبيين والمرسلين من الذنوب كبيرها وصغيرها، والعصمة من الذنوب نأتجة من كمال الايمان وصلابة التقوى، وليست نتيجة قوة خارجة تصد الانسان عن الذنب جبراً من أجل وصوله الى حد الصيانة، لإن الشخص إذا كان مجبولاً على ذلك فهو مسلوب الإرادة، وعدم ارتكابه للذنب لا يعتبر كمالاً. ولكن الأنبياء جميعاً لهم حرية الاختيار والتمييز بين النافع والضار، وإنما الاختلاف في قابليتهم المتميزة في التحكم في الشهوات¹³.

لإنه إذا لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوما فقد يؤول الأمر الإلهي بطاعته والتأسّي به الى الأمر بالمطابعة على الذنب والخطأ والمخالفة، وذلك محال صدوره عن الله تعالى. ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة التي تمثل الإسلام في حياته اعتقاداً وتفكيراً وسلوكاً وعملاً وتصرفات "فكان خلقه القرآن"، أي أنه كان يتلقى القرآن من لدن حكيم حميد، ثم يتلوه على الناس ويقرؤهم آياته {أتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون. ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا اليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآيتنا إلا الكافرون. وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون، بل

¹² أنظر: الشيخ عبدالغني عبد الخالق، حجية السنة، امريكا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995، ص87 وما بعدها.

¹³ مرتضى مطهري، الوحي والنبوة، ص9.

هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بايتنا إلا الظالمون، وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون { (العنكبوت: 51-45).

ثم يبين عليه الصلاة والسلام للناس عمليا بسلوكه وسيرته لتتضح لهم جوانب هداية القرآن - كلها- فينفعلوا بها. ولقد شاهد عروة بن مسعود¹⁴ من قيادات الطائف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه فأراد أن يصفه ويصف تعلق أصحابه به فقال: " والله يا معشر قريش .. لقد جئت كسرى في ملكه وقيصر في عظمته فما رأيت ملكا في قومه مثل محمد بين أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً، إذا توضعاً ابتدروا وضوءه - أي تسابقوا الى الماء الـ I يبتناثر من وضوءه- (أي يتسابقوا الى الماء الذي يتناثر من وضوءه ليتبركوا به) لا يجدون النظر اليه (هيبة له)، إذا تكلم خفضوا أصواتهم كأن على رؤوسهم الطير"¹⁵.

وكانوا لا دراكهم لضورة التأسي به -عليه الصلاة والسلام- يحاولون أن يتبعوا كل ما يصدر عنه، بل ويصفوه ويصفوا كل شيء من أحواله في منتهى الدقة، ويتابعون كل ما يقوله ويفعله أو يقره بصبر وجلد عجبين. جاء في وصف هند بن هالة له -عليه الصلاة والسلام- قول هند: " .. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم- متواصل الاحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه (أي لا بأطراف لسانه) يتكلم بجوامع الكلم، فصلا لا فضول فيه ولا تقصير... وكان يخزن لسانه إلا بما يعنيه... ولا يذم أحدا ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا"¹⁶.

الرسالة الخاتمة وخصائصها العامة:

1- إن المستعرض لتاريخ العالم يجد أثر النبوات ذلك واضحا في فتراته المختلفة، ويوم انحصرت قيادة البشرية كلها في القرن السادس والسابع الميلادي بأيدي دولتين جاهليتين بحقائق الهداية الالهية دولة فارس الثنوية المجوسية في المشرق، ودولة الروم التي لم يكن قد بقي لديها سوى بقايا ديانة سماوية ادخل عليها من التحريفات والإضافات ما شلَّ فاعليتها. وكانت الحروب والصراعات بينهما لا تنتهي ولا تتوقف فضلا عن الصراعات الداخلية في كل منهما، فكأن البشرية كلها كانت في القرن السادس وأوائل القرن السابع تترقب مطلع النور وتقلب أطرافها وأفئدتها في السماء بحثا عنه. وتعلن عن عجزها عن الاتيان به من داخلها، فلم يخيب الباري سبحانه رجاء العالم فمنَّ على البشرية بمحمد عليه الصلاة والسلام- نبيا ورسولا على فترة من الرسل، وأنزل عليه رسالته الخاتمة والاخيرة في كتاب مكنون خالد ومجيد يصحح ما حرف، ويهيمن على ماسبق، ويشتمل على

¹⁴ هو عروة بن مسعود الثقفي، أرسلته قريش الى الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية. وقد أسلم ونال شرف الإسلام والصحة ثم الشهادة.

ترجمت له سائر المظان، منها طبقات ابن سعد في (1ظ127) والاصابة الترجمة (5546) وغيرها.

¹⁵ القاضي عياض، الشفاء، 121/1.

¹⁶ المرجع السابق، 121/1. وكذلك في الترمذي، في الشمائل، طب هب- عن هند بن أبي هالة).

المنهاج الكامل المنضبط، والشرعة التامة المخففة، وأودع الله -تعالى- في كتابه الخالد -هذا- منهاجه الكامل الذي لا يزيغ من اتبعه، ولا يضل من تمسك به.

2- وقد قدم هذا الكتاب الكريم للبشرية بادئ ذي بدء الرؤية العقيدية والدعائم الايمانية لتصبح هذه العقيدة مجموعة من المسلمات تشكل مع عناصر الايمان الاخرى التصور الاسلامي ومقوماته، وتكون أركان العقيدة قاعدة لبناء عالم أفكار متكامل ينطلق في تناول تفاصيله من قراءة وحي مسطور يتمثل بكتاب نازل وسنة قائمة يبين بها رسول الله صلى الله عليه وسلم -آيات ربه ويجوؤها بالتربية والتركية وتعليم الحكمة الى واقع يحياها الناس فقضى على الوثنية، وانتهى دور العصبية القبلية، والحمية الجاهلية ونحوها من الروابط الهابطة ليحل محل ذلك كله رباط العقيدة الاسلامية الحنيفة. ونحيت الأعراف القبلية لتحل محلها الشريعة الإلهية، وقبرت نعرات الجاهلية الى الأبد ليحل محلها النظام الأخلاقي الإسلامي، وأبطلت تقاليد الغزو والسلب والنهب، والحروب الوحشية ليحل محلها جهاد في سبيل الله وهجرة فأثمر ذلك -كله- التأليف الإلهي بين القلوب والمواخاة النبوية بين المسلمين والعقيدة الواحدة والوجهة والغاية الواحدة والمنهاج الواحد والشرعة الواحدة لتظهر الأمة المخرجة للناس نموذجاً ومثالاً لتأخذ في الأمم ذات الدور الذي رسم الله لرسوله فهو شهيد على أمته، وأمته شهيدة على الناس. ولأول مرة تعرف الأرض أمة هادية مهديّة مخرجة الى الكافة، وقيادة تمثل فكرة الخلافة الإنسانية في الأرض وتبنى عمراناً بمقتضى تعاليم الكتاب النازل تبيانا لكل شئ قال تعالى {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين} (النحل: 89)، {أتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون. ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا اليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بايتنا إلا الكافرون. وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بايتنا إلا الظالمون، وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} (العنكبوت: 45-51).

{حم تنزيل من الرحمن الرحيم... إذ جاءهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون. إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم. ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد. ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب. من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد...} (فصلت: 1-54).

3- أن خصائص الرسالة الخاتمة وآيات القرآن الكريم التي هي -ختم آيات الانبياء- تستبطن معاني أن البشرية قد وصلت الى قمة رشدتها بحيث أنها ليست بحاجة الى حضور نبي يقوم بالتدريب والإشراف المباشر على إدراك المنهج العلمي في التحري والبحث والدراسة. ولكن ألا تعتبر حالة البشرية في المرحلة المصاحبة للنبوة الخاتمة هي أولى مراحل التطور البشري النهائي، بمعنى

أن الارتقاء البشري في زمن الصحابة الذين كان لهم نصيب معايشة وحضور أنوار النبوة الخاتمة تعد هي مرحلة المواجهة بين البشرية في مرحلتها المتطورة وبين خالق الكون في عرضه الحقيقة الكاملة في جميع القضايا الكلية منها والجزئية، وأن دور رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة كان التأكيد على (التلاوة) وهذا لا يعني أن تقتصر على أصحاب مرحلة المواجهة وإنما تمتد في الأصل للبشرية جمعاء حتى يوم القيامة، وما مرحلة المواجهة هذه أختيرت إلا لحفظ الكتاب الكريم للبشرية، ثم تأتي مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم في البيان لتهيأة وتدريب الانسانية على كيفية تلاوة كتاب الله وفهمه

وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

العرب أمة أمية لم يسبق لها أن عرفت نبياً رسولاً منها قبل محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وعاش عليه الصلاة والسلام فيهم ثلاثاً وعشرين عاماً يتنزل الوحي عليه فيعيش كل من حوله في أجواء روحية يشاهد آثار الوحي ويقرأ آياته ويحس بكل جوانحه وجوارحه بأنوار الوحي من حوله وهو يهبط ويرتفع طيلة الأعوام الثلاث والعشرين أي ما يقرب من ربع قرن أو جيل كامل، وذلك الإلف والعادة تحولا الى ما يشبه المسلمة بل العادة الحياتية، ولذلك فإن اضطراب رجل مثل عمر رضي الله عنه بحيث ينفي وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويبادر الى القول بأنه غاب غياب موسى، أو ارتفع ارتفاع عيسى، لأن أولئك سلفه وأصله الذي يقاس عليه، فبالرغم من الايمان العميق ببشريته عليه الصلاة والسلام ولكن لم يكن سهلاً على أحد أن يصدق نبأ وفاته عليه الصلاة والسلام. فهل كان هذا هو الرد الانساني الطبيعي على نداء الله للبشرية أنكم وصلت الى مرحلة النضوج في القدرة علماً لانفصال عن الحضور النبوي (الجسد) كرمز (للحس) إلى الانتقال الكامل بعد وفاته عليه الصلاة والسلام الى التجريد (وهو الانتقال من مرحلة التصور الحسي إلى التصور الذهني)؟ فكأن هذه مرحلة فصل دقيقة تستبطن في داخلها معان فلسفية عميقة ليس بقدرة أي إنسان عادي إدراكها ما لم يبذل قصارى الجهد في التفكير والتدبر والنظر كي يصل إلى أسرارها كما أعلنها أبو بكر الصديق¹⁷ رضي الله عنه حين قال: "من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلى: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه، فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين} (آل عمران:144) وفي هذه الآية كأن الخطاب الإلهي يهياً البشرية المتمثلة في أصحاب مرحلة المواجهة المختارة من البشرية (الصحابة) على إدراك دور النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يتطلب حضوره الجسدي وهي مرحلة كتهيأة الطفل قبل البلوغ لمرحلة البلوغ والأنفصال عن الوالدين والاعداد النفسي والفكري والبدني ونحوه للاعتماد على الذات، ولذلك فإن لهذه الآية الكريمة أبعاد واسعة توضح معالم دور النبي وحضوره وخاتمة رسالته وخصائصها ومن أهم معالمها أنها المرحلة الاخيرة كواسطة اتصال بين الخالق والبشرية المستخلقة على الأرض، فهي مرحلة دقيقة وهامة جدا في حياة البشرية لخصوصية أهميتها الانتقالية بين مراحل متعددة في آن واحد، فهي مرحلة إنطلاق وفي الوقت ذاته هي مرحلة ختام (نهاية) فهي مرحلة نهائية لما سبقها من عملية حضور النبي والرسول بين البشر مدعماً بآيات حسية لتهيأة الناس

¹⁷ وتأمل موقف أبي بكر في غزوة بدر عندما ألح رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعاء حتى قال: "اللهم أن تهلك اليوم هذه الطائفة فلن تعبد في الارض... فقال له ابو بكر: ألم يعدك ربك فلن يخلف الميعاد، فاكمئن يا رسول الله

من استيعاب العلاقة بينهم وبين الخالق، فكان النبي صلى الله عليه وسلم هو خاتم هذه المرحلة التي تتمثل بوجود شخصي للنبي بين الناس، ولكنها في الوقت ذاته هي مرحلة إنطلاق وبداية للبشرية في الانفصال عن ذلك الوجود الشخصي الى الاعتماد على الذات في البحث والتحري في الوصول الى الحقيقة بواسطة التجريد ولذلك فبتلاوة آيات سورة آل عمران والتأمل في معانيها يوحى الى وصف دقيق الى هذه المرحلة خاصة التي فيها معاني الانتقال والتحول من حالة الى أخرى مع مخاطبة خاصة لأصحاب مرحلة المواجهة في الآيات {.... يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم عlishفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم.... تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين، والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور، كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون}. (آل عمران: 101-110)، { قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، ولا تحنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين } (آل عمران: 137-139)، ومن الواضح في تلك الآيات معاني التهيئة النفسية والفكرية لانسان تلك المرحلة في مراجعة وتحليل تجارب الماضي ليتهيى في بناء اللبنة النفسية والفكرية للمستقبل، وقد تتابعت الآيات البنائية لتهيأ إنسان المرحلة للانفصال والاعتماد على الذات في قوله تعالى { وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزى الله الشاكرين، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين. وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين، وما كان قولهم غلاً أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين، يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين، بل الله مولاكم وهو خير الناصرين } (آل عمران: 144-148).

فهل حقاً تم للبشرية في تلك المرحلة إدراك واستيعاب مفردات معاني مفهوم النبوة من ناحية، وعملية القبول الكامل

والاعتماد على الذات في تحمل المسؤولية...؟

لقد خالط حبه صلوات الله وسلامه عليه القلوب والمشاعر والنفوس، وكان حبه أهم مظهر من مظاهر الايمان وأهم آلية من آليات التأسى والإبتاع. فلا غرابة أن تجد ذلك الإنكار لوفاته يتحول الى دافعية تقود -فيما بعد- الى تكوين طوائف ثلاثة، وذلك عدا أولئك الذين أرتدوا عن الاسلام وخرجوا على الأمة وجماعة المسلمين:

فالطائفة الأولى: وهم حملة المهم العام "السياسيون": الذين حاولوا أن يعبروا عن تشبّثهم في حبّهم له عليه الصلاة والسلام بان تقوم خلافة له على منهاج نبوته تتمثل خطى النبوة في كل تصرف وحركة وسكنة ، وإجراء وقرار، وبالتالي فانها بذلك تجسد سيرته وسياساته وسنته لتشعر نفسها وتشعر الآخرين بأنه عليه الصلاة والسلام موجود بينهم لم يغيب، وإذا غاب شخصه عن الانظار فإنه لم يغيب عن العقول والقلوب والألسنة والمجتمع والسياسات.

وفريق آخر من أولئك السياسيين لم يقتصروا على ذلك فحسب، بل ضموا اليه ضرورة إنتقال سلطاته عليه الصلاة والسلام الى الائمة من آل بيته وبالتالي فيكون الحضور النبوي في حياة الأمة أكثر تجسداً وبروزاً.

أما الطائفة الثانية: فقد تمثلت في فريق من أولئك المتصوفة والزهاد الذين رأوا أن تستمر النبوة في شكل ولاية. فالولي خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والولاية مظهر آخر - في نظرهم - من مظاهر النبوة، والمعجزة تستبدل بالكرامة ويكون للزهد مصدران (الكتاب الكريم) الذي لم يترك في طريق الروح وبنائها سبيلاً إلا أوضحه فزهد في الحلال ومنع الحرام، وجاءت السنة النبوية لتقدم السبيل العملي لكيفية ممارسة الزهد وتركية النفس وهؤلاء هم الزهاد كما كانوا يلقبون في القرن الأول والثاني للهجرة في مقابل القراء وقد تشبثوا بكثير من السنن وتداولوا مجموعة كبيرة من الأحاديث وأعتبروا السنة أقوى وأوضح في بيان طريق الزهد من القرآن. ولقد حاولوا من خلال حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعلوه عليه الصلاة والسلام مجسداً بينهم لا يفارق حلقاتهم فتغنوا به في أشعارهم وفي نثرهم، وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم بأساليب مختلفة، وسوغوا لأنفسهم أن يضعوا على لسانه صلوات الله تعالى عليه وسلم دون تردد ما يروونه محققاً لاهدافهم وفسروا آياً من القرآن بما ينسجم وتصوراتهم فإذا قال تعالى {الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين} قالوا: نعم، إن الحقيقة المحمدية بيننا وتقلب في حلقات ذكرنا. وان بعض هؤلاء الزهاد ربما اعتبروا (الحقيقة المحمدية) مما ينتقل ويحلُّ في بعضهم عند بلوغهم درجة الفناء في حبه عليه الصلاة والسلام، وقد يتكلم بعضهم الكلام وينسبه اليه عليه الصلاة والسلام على اعتبار اتحاده "بالحقيقة المحمدية"، فوضعوا من الأحاديث الشيء الكثير مضافاً الى تلك الأحاديث التي صحت.

لقد صوروه عليه الصلاة والسلام بالانسان الكامل أو النموذج الأعلى للطبيعة الإنسانية المتفوق على نموذج الطبيعة النارية (أبليس) ونموذج الطبيعة الملائكية (جبريل)، وأخذوا يفسرون حياة الصحابة رضوان الله عليهم بطريقتهم فالشيخان من بعده (شيخا الزهاد)، والقراء وأهل الصفة ما كانوا الا النماذج الأولى للمنقطعين للعبادة والتائبين والعابدین. وفسرت حياة الزهد والتسك في عهده عليه الصلاة والسلام وعهد الشيخين رضي الله عنهما تفسيراً صوفياً يتناسب واتجاهات التصوف في تلك المرحلة.

لقد حول المتصوفة بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم الى حقيقة أزلية سارية في كل شئ وأعطوا لنصوص السنة المقبولة لديهم دلالات متجددة من خلال مفهوم الولاية الذي تم تأسيسه صوفياً على مفهوم النبوة، ولذلك نص ابن عرب¹⁸ فيما بعد

18 أنظر: ابن عربي، الفتوحات المكية،

وغيره، على أن النبوة وإن ختمت بالمعنى الظاهري لكنها دامت واستمرت في معناها الباطني من خلال الولاية¹⁹. ويمكن القول دون مبالغة أن التصوف قد أوجد سنة وطريقة موازية لما عرف بالسنة التشريعية لدى الأصوليين والفقهاء.

أما الطائفة الثالثة: فقد كانوا يتمثلون بمن عرفوا فيما بعد بالعلماء سواءً أكانوا متكلمين أو فقهاء أو أصوليين أو محدثين، وهؤلاء لم يكونوا يقلون حرصاً عن الطائفتين الأوليين في محاولة تجسيد حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل مستغرق بحيث يتخلص من فكرة الغياب النبوي- فالعبارة العنيفة التي أطلقها الصديق ليرد الوعي إلى ابن الخطاب والمفجوعين من الصحابة (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) والتي بناها على قوله تعالى {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين} (آل عمران:144).

فإن هذه الآية وتلك المقالة وإن كانت كل تلك الطوائف سلمت بما نظرياً أو مكرهه، لكن كان هناك رفضاً نفسياً لها، عمل على تجسيد النبي صلى الله عليه وسلم وجعله حاضراً على الدوام عند الفقيه والأصولي والمتكلم وسائر أهل العلم من خلال ترديد السنة وتداولها وتناقضها، والعيس فيها لتحقيق ما ذكرناه.

الردة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم:

إن عدم استيعاب بعض ممن أسلم متأخراً إلى جوانب هامة وخطيرة في مفهوم النبوة سواءً أكانت معاني بشرية النبي، واصطفاؤه، ومهامه، ومعاني خاتمة النبوة، وختام آيات النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم ومؤشراتها الهامة في عملية نزوح وبلوغ البشرية درجة الاستيعاب والادراك الوافي لتقدم المنهج الفكري والنفسي الذي قدمه القرآن الكريم للإنسان في تطوير قدراته على الفك والتحليل وإعادة التركيب ونحوها من العمليات المنهجية، وخاصة في عرض أحوال الأمم السابقة وتحليل عوامل الضعف والقوة وتبنيها، وفي المحاورات التي قدمها القرآن الكريم على مختلف المحاور، ونحوها. ولكن بقت هذه المعاني غائبة عن البعض ممن كان في مرحلة المواجهة الخطيرة في حياة البشرية جمعاء. فظهر المنافقون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، وأرتد أقوام بعد وفاته صلى الله عليه وسلم لغياب كل هذه المفاهيم العميقة عن تلك الأذهان وإن خير وصف لذلك الإرتباك الفكري والنفسي الذي وقع في النفوس ما جاء في سورة التوبة²⁰ والله أعلم، قال تعالى {وإن أحد من المشركين أستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فما أستقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين. كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون، لا يرقبون في

2- الحقيقة المحمدية،

3- الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين،

19 الالوسي، تفسير روح المعاني،

20 اتلو: سورة التوبة سورة التوبة كاملة في توضيح المعنى المشار إليه.

مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون {
(التوبة: 6-11).

مؤشرات في اتخاذ السنة فقهاً بعد غياب النبي صلى الله عليه وسلم:

الفقه والسنة في عصره صلى الله عليه وسلم، ثم في خلافة الشيخين وبقية فترة الراشدين كان الكتاب الكريم هو المصدر الأول والأساس والمنشئ للأحكام. فقد كان الشيخان والخليفتان من بعدهما، بل وسائر من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاهدونه حين تأتية مسألة أو نازلة كيف ينتظر الوحي أياماً وأسابيع أحياناً فلا يقضي أو يفتي فيها بشئ انتظاراً للوحي. وقد سجل القرآن المجيد خمس عشرة مرة أسئلة توجه إليه فلا يجيب حتى ينزل القرآن ليقول له {يسألونك} ويرد ذلك بالجواب وقد كانت ثمان من تلك الأسئلة فقهية، وهي: {يسألونك ماذا ينفقون، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين} البقرة: 215.

{يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير} البقرة: 217. {يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس} البقرة: 219. {ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو} البقرة: 219. {ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير} البقرة: 220. {ويسألونك عن المحيض، قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن} البقرة: 222. {ويسألونك ماذا أحل لهم، قل أحل لكم الطيبات} (سورة المائدة: 4). {يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله وللرسول} الأنفال: 1. وبلفظ يستفتونك أورد القرآن الكريم مسألتين: {ويستفتونك في النساء، قل الله يفتيكم فيهن} النساء: 127، {ويستفتونك في النساء، قل الله يفتيكم في الكلالة} النساء: 176.

إن هذه المسائل -كلها- مسائل فقهية لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مفوض بالتشريع فيها وفي أمثالها لما انتظر نزول القرآن بحكمها، ولأجاب السائلين عنها فوراً دون انتظار! أو تأخير للبيان عن وقت الحاجة. وأحياناً سؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان حكم أمور لم يسألوا عنها، منها قوله تعالى: {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قرى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون. وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} الأنعام: 151-153. وآيات سورة النساء (59-2) و (94-92)، بل والسورة -كلها- ملأى في بيان أحكام كثير من القضايا الهامة وبتفاصيل غير قليلة: فقد اشتملت آياتها على أحكام اليتامى والولاية عليهم وعلى أموالهم والطرق المشروعة للتصرف فيها، ونكاح أولياء اليتيمات هن، وأحكام الموارث، وضرورة طاعته عليه الصلاة والسلام في كل ما جاء به عن ربه، ثم أحكام الزواني وعقوباتهن وأرث النساء وعضلهن، والحلال والحرام في النساء ومهورهن، وما حرم بالنسب وبالمصاهرة وبالرضاع وأحكاماً متعلقة بتنظيم الأسر، وأحكاماً كلية ومقاصيدية وأحكام الصلاة، وتحريم القيام بها في حالة السكر، وأحكام الطهارة،

وقضايا عقيدية تتعلق بالإيمان والشرك والنفق والحكم والقتال، وأحكام القتل والأمن والخوف، والمعاهدين والمستضعفين والمهاجرين، وصلاة الخوف وهيئاتها، ووحدة العقائد في سائر الرسالات واختلاف الشرائع، وأحكام الربا. والكلالة وبعض طبائع أهل الكتاب وخصالهم الذميمة وختمت بأية الكلالة. وهناك سورة الإسراء وما اشتملت عليه من أحكام وفقه من الآية (22-39). فكل الفقه الذي بنيت على تشريعات الأمة كان إلهياً قرآنياً محضاً، وكان عليه الصلاة والسلام يقوم باتباعه وتبليغه وبيانه، وتعليمهم كيفية تطبيقه وكان هذا الفهم من الأمور الضرورية البديهية، لم يوجد من يجادل فيه أو يناقش، لأنه ما من أحد منهم تجاوز بالسنة مرتبة البيان لأحكام القرآن، ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم مرة واحدة بأن له حق التشريع إلى جانب القرآن، لأن القرآن الكريم ما فرط بشئ أولاً، ولأن البيان ليس إنشاءً للحكم على سبيل الاستقلال، لأن الحكم وارد في القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينبه بالقول وبالفعل والتطبيق.

وفي المرات التي استدلت بها من استدلت على جواز اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم، كانت اجتهاداته كلها في أمور تنظيمية وسياسات غلب على ظن النبي صلى الله عليه وسلم أنها من قبيل الرأي وأن له أن يقول أو يحكم فيها بما يراه وجاء القرآن بتنبهه إلى وجه الصواب فيها ومنها قضية أسرى بدر أقتلون أم يقبل منهم الفداء مال عليه الصلاة والسلام إلى المفاداة، وعاتبه القرآن على ذلك لإثم كانوا من العقبات الكأداء أمام الإسلام.

وقضية استئذان بعض المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك، وقبول أعذارهم المصطنعة فعوتب على الأمرين، وكلاهما يعد في المجال الإداري التنظيمي والسياسات أكثر من صلته في المجال التشريعي. ولكنه جل شأنه أراد أن يبين للناس أنه لا يشرك في حكمه أحداً. وهذا كله يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يرى لنفسه حق التشريع المستقل تماماً، والمنشأ من قبله ابتداءً، بل له عليه الصلاة والسلام حق التبليغ والاتباع والبيان النبوي قد يكون بالقول وبالفعل والتقرير كما أوضحنا. ومن هنا كان الشيخان والخليفان بعدهما يدركون هذه الحقيقة الناصعة إدراكاً تاماً، فإن كان عليه الصلاة والسلام قد قضى أو أفتى، أو قال فبعد التأكد من صحة الرواية عنه وصدقها برواية صحابين على الأقل يعتبران ما قضى به أو أفتى أو قاله: بياناً للقرآن الكريم ملزماً لا يتجاوزونه إلى أي بيان سواه.

أما قضية الاستقلال بالتشريع فلم تكن مطروحة في تلك المرحلة أصلاً. ولذلك نص ابن القيم وغيره على أن مهمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تفصيل ما في الكتاب الكريم من إجمال، وتحديد ما يكون لبعض أحكامه من شروط وموانع وقيود وأوقات وأحوال وأوصاف، مما اصطحح الأصوليون على تسمياته "بالأحكام الوضعية" لقد حصر بعض الفقهاء آيات الأحكام بحوالي ثلاثمائة وثلاثين آية (140) في العبادات ونحو (70) في أحكام الأسرة، ونحو من (70) في المعاملات، ونحو (30) في العقوبات، ونحو من (20) في القضاء والشهادة وما يتعلق بها. وتقيدوا في هذا بما صدر "بأفعل ولا تفعل" وإلا فأن الأحكام القرآنية قد جاءت لتصف الدار الآخرة ولتذكر أمثال وقصص، ومواعظ وما إليها. وحصروا الأحاديث الواردة في الأحكام - وهي لباب السنن- بما لا يزيد في أكثر الأقوال تكثرها عن (1100) مائة حديث وألف. فقد قال بعضهم: إنها بعدد آيات الأحكام فكأن كل آية ارتبط بها حديث واحد لبيانها، لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً فإذا برزت حاجة إلى البيان الفعلي أو التطبيقي من رسول الله صلى الله عليه وسلم يورد الحديث الصحيح الذي يستطيع العلماء أن يصلوا فيه إلى الثلج سناً ومتناً

لتحقيق ذلك النوع من البيان. وهذا لا نعلم أحداً من أهل العلم زاد فيها عن (مائة وألف) كما ذكرنا إذ أن جمهرة أهل العلم قالوا بأنها خمسمائة وقال عبدالله بن المبارك هي تسعمائة، وبلغ بعضهم بما ذكرنا (1100)، ولذلك لم يشترط في "المجتهد المطلق" أن يعلم من السنن أكثر مما في سنن أبي داود، لا حفظاً، بل يكفي أن يعرف مواضعها في السنن، ويعرف كيف يستخرجها منها عند الحاجة. أما بقية الأحاديث فقد جاءت في أمور أخرى، بعضها فطري أو جبلي طبيعي جاء لتأكيد بشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء بعضها لبيان الإباحة وجاءت عامتها للتربية والوعظ والتوجيه والنصح. ولذلك ورد التحذير من فتنة الأحاديث، والإنشغال بما عن القرآن الكريم حتى سماها الإمام علي بن أبي طالب فتنة الأحاديث، عن الحارث الأعور، قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على علي فقلت: يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث، قال: وقد فعلوها! قلت: نعم، قال: أما إني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: {إنا سمعنا قرآناً عجياً يهدي إلى الرشد فآمنا به}، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم." خذها إليك يا أعور²¹.

ولقد حاول الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أن يجعلوا من تطبيقات رسول الله صلى الله عليه وسلم كحادثة توريث الجدة مع أبي بكر الصديق، ونقل عن علي في توريث الجد مع الإخوة اختلّفوا على مذهبين: فذهب الصديق وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير: إلى أن الجد يسقط جميع الإخوة والأخوات من جميع الجهات كما يسقطهم الأب، وروي ذلك عن عثمان وعائشة وأبي بن كعب وأبي الدرداء ومعاذ وأبي موسى وأبي هريرة-رضي الله عنهم- عن عمران بن الحصين وجابر بن عبدالله وأبي الطفيل وعبادة بن الصامت وعطاء وطاوس وجابر بن زيد، وبه قتادة وإسحاق وأبو ثور ونعيم بن حماد وأبو حنيفة. وذهب علي بن أبي طالب وابن مسعود وزيد بن ثابت رضي الله عنهم إلى توريثهم معه وعدم حجبتهم به، وبه قال مالك والاوزاعي والشافعي وأبو يوسف ومحمد ومسروق وعلقمة وغيرهم²².

الرأي والحديث:

²¹ رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله، باب ما جاء في فضل القرآن، رقم: 2906. وبنفس اللفظ أورده أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير، 840هـ في كتابه الموسوم ب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان)، دار الكتب العلمية، 1984، ص15.

²² الرازي، المحصول في علم الأصول، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1992م، ج128/4 وما بعدها.

ومن هنا فانه ما أطل عصر التدوين، تدوين الثقافة أو الذاكرة الثقافية للأمة في منتصف القرن الثاني الهجري وذلك مع بدايات سنة 143هـ، على ما ذكره الذهبي وتبعه السيوطي وغيرهما وقد بدأ الناس يعتمدوه على السنن لا باعتبارها فقهاً نبوياً في الكتاب وبياناً له وتطبيقاً لأحكامه واتباعاً لتلاوته، بل باعتبار السنن مصدراً موازياً للقرآن الكريم وربما بدأ البعض يقدمها على القرآن ذاته وأصبح القرآن الكريم محيد بشكل كبير، "فالقرآن حمال أوجه" عند الجماهير، وهو معجز بلغته" فلا يسمو إلى آفاق فهمه إلا القلائل، ولم يعد الكثيرون يتذكرون أن القرآن أيسر من سائر الكتب، وأن الباري سبحانه قال: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وأنصرف الناس نحو الفقه والسنن وبدأت فكرة خاطفة تشيع بين الناس ويجري تداولها بين طلبة العلم على نطاق واسع وهو أن القرآن المجيد يحتوي على آيات أحكام لا تتجاوز (500 آية) في أكثر التقديرات وهي التي ينبغي للمجتهد أن يصرف غايته إليها كبرى ولكن الحاجة اليه ماسة فقط لإخذ مجموعة من النصوص لا تتجاوز عند البعض مئتين وأربعين آية أو ثلاثمائة وأربعين آية مقسمة على أبواب الأحكام الأساسي على النحو التالي:

الأحكام بحوالي ثلاثمائة وثلاثين آية (140) في العبادات ونحو (70) في أحكام الأسرة، ونحو من (70) في المعاملات، ونحو (30) في العقوبات، ونحو من (20) في القضاء والشهادة وما يتعلق بها. وتقيدوا في هذا بما صدر "بأفعل ولا تفعل" وإلا فأن الأحكام القرآنية قد جاءت لتصف الدار الآخرة ولتذكر أمثال وقصص، ومواعظ وما إليها. وحصروا الأحاديث الواردة في الأحكام -وهي لباب السنن- بما لا يزيد في أكثر الأقوال تكثيراً لها عن (1100) مائة حديث وألف. فقد قال بعضهم: إنها بعدد آيات الأحكام فكأن كل آية ارتبط بها حديث واحد لبيانها، سبعون آية للمعاملات وعشرون آية للجنايات والعقوبات وتسعون آية للأحوال الشخصية²³. أما فيما عدا ذلك فإن السنة النبوية ينبغي أن تكون هي النص المحوري الذي تشكل الذاكرة الثقافية من خلال حوارها معه ومع الواقع، فمنها تنبثق الأصول وتستنبط أنواع الفروع ويفتق منها في النوازل وبما يمكن أن يكتفى عن سواها، في حين لا يستغنى عنها بسواها في أي حال من الأحوال. وحين كان المتقدمون يتحدثون عن الإجتهد وشروط المجتهد كانوا يذكرون هذه الأرقام من الآيات الكريمة وما يبينها من السنن النبوية.

ثم بدأ البعض يتجاوز هذا الأمر ليدير جميع السنن على اعتبارها مصادر للأحكام حتى السنن التي لا تفيد أحكاماً بشكل مباشر اعتبروها من سنن الأحكام باعتبارها دالة على الإباحة ما دام قد فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إذن بها أو أقرها، والإباحة حكم شرعي، وهنا بدأت تتضح معالم الإنقسام بين علماء الأمة لتنتهي إلى أنقسام فعلي أفرز مدرستين، مدرسة عرفت أهل الرأي وأهل الحديث وصارت لكل منهما معالم وشواهد أنظر كتابنا في أصول الفقه، وملخص ما أوردناه هناك. وحين أخذت تظهر بوادر رفض أو تساؤل حول تلك الاتجاهات تتمثل بطرح تساؤلات أو أشكالات حول ما هو مطروح، كانت قضية الحجية الشرعية قد أصبحت تمثل الحاجة الماسة للرد على تلك التساؤلات والاستشكالات، فالأمة قد صارت الى معسكرين:

23 أنظر: الحضري، في كتابه ..

معسكر أهل الرأي: وهم أولئك الذين كانوا يرون في بادئ الامر أن العقل الإنساني قد أعطي في الإسلام ما لم يعطه في الرسائل السابقة، وبالتالي فلا بد له من أن يمارس دوره وصلاحيته في هذه الرسالة إذ هو دور رسمه الله جل شأنه وأيده رسوله صلى الله عليه وسلم ببيانه النبوي.

فمصادر المعرفة في هذه الرسالة محصورة بالوحي والاجتهاد. فالحاكمة الالهية قد توقفت وأعتبرت نهايتها في بني إسرائيل، وما كان لاحد أن يعيد هذه الحاكمة للعمل بعد أن أنعم الله جل شأنه على البشرية برفعها.

وأما المعسكر الثاني: فقد عرف تاريخياً بفريق أهل الحديث لان هذا الفريق ليس توهم البعض أحتج بالسنة أو اعتبرها دليلاً فذلك أمر لم يكن يتنازع فيه أحد من المسلمين. ولكن كانت جمهرة أهل الحديث تنطلق من نموذج معرفي مفاده أنه إذا كان القرآن حمال أوجه وذا نصوص محدودة متناهية مرتبطة بسياقاتها، فإن السنة النبوية غير متناهية وشاملة لكل جوانب الحياة وتستطيع أن تجد فيها ما تشاء. وقد أنشأ أهل الحديث منظومة فكرية متكاملة شملت وضع مجموعة من النماذج المعرفية، بل والمناهج التي أضفت الصفة العلمية على تلك الأطروحة وتمت صياغة مجموعة من الافكار الأساسية التي اقتضتها عملية تعزيز المنظومة وتقويتها وإيجاد الترابط في داخلها²⁴.

البخاري ومسلم بين الفقه والحديث:

إن الإمام البخاري نفسه قد عرف "بالفقه"، بل عد من الكمجتهدين وقد ذكر في مقدمة صحيحه بعضاً من فتاواه مثل فتواه في "طلاق السكران"²⁵. وإن فقه البخاري وقدراته الإجتهدية تبدو في تراجم الأبواب في صحيحه. قال نعيم بن حماد الخزازي: محمد بن اسماعيل فقيه هذه الأمة". وقال بندار (محمد بن بشار): " هو أفقه أهل زماننا". وقد اعد شاه ولي الله الدهلوي رسالة في شرح تراجم أبواب البخاري طبعت في الهند سنة (1323هـ) وقد ذكر الدهلوي في مقدمة كتابه -هذا- قوله "أول ما صنف أهل الحديث في علم الحديث جعلوه مدوناً في أربعة فموم: فن السنة- أعني الذي يقال له الفقه مثل موطأ مالك وجامع سفيان. وفن التفسير مثل كتاب ابن جريج. وفن السير مثل كتاب محمد بن اسحاق، وفن الزهد والرقاق مثل كتاب ابن المبارك. فأراد البخاري -رحمه الله- أن يجمع الفنون الأربعة في كتاب ويجرده لما حكم له العلماء بالصحة قبل البخاري وفي زمانه، ويجرده

²⁴ ويمكن ملاحظة موقف الامام الشافعي في كتاب الرسالة والذي ألفه في مكة، إذ كتب اليه عبد الرحمن بن مهدي " وهو شاب أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن، ويجمع قبول الاخبار فيه، وحجة الاجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة" أنظر: مقدمة الرسالة، تحقيق احمد محمد شاكر، القاهرة، مكتبة دار التراث، ط2، 1979م، ص13 يقول الشيخ أحمد شاكر: " وهذا الكتاب (الرسالة) أول كتاب ألف في (أصول الفقه)، بل هو أول كتاب ألف في (أصول الحديث) أيضاً، ثم يضيف قال الفخر الرازي في مناقب الشافعي ص57: " كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه، ويستدلون ويعترضون، ولكن ماكان لهم قانون كلي مرجوع اليه في معرفة دلائل الشريعة، وفي كيفية معارضتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه، ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع اليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت أن نسبة الشافعي الى علم الشرع كنسبة أرسطاطاليس الى علم العقل". وهكذا فكان دور الشافعي عظيم في القيام في تأصيل مناهج علمية تدعم منظومة أهل الحديث. والله أعلم.

²⁵ المقدمة (198/2)، وكتاب شيخنا عبد الغني: (الإمام البخاري وصحيحه: (138) ط دار المنارة.

للحديث المرفوع المسند وما فيه من الآثار وغيرها إجماعاً به تبعاً، لا بأصالة. ثم ذكر الإمام الدهلوي جانباً هاماً آخر مما اهتم به البخاري وهو: "أن يستنبط من كل حديث مسائل كثيرة جداً (أي في الفقه) ويودع في تراجم الأبواب سر الاستنباط ثم استعرض الدهلوي تراجم الأبواب وأنواعها.. ومن تلك الأنواع ذكر: أنه يترجم أحياناً- بمسألة استنبطها بنحو من الاستنباط- من نصه أو اشارته أو عمومه أو إيمائه²⁶".

فنحن إذن أمام كتاب في (فقه السنة) أساساً، فهو أقرب ما يكون إلى موطأ مالك من حيث الموضوع. ولذلك نصوا على أن البخاري لمن يريد التفقه. ووجود فنون ثلاثة أخرى بين محتوياته لا يخرجها عن ذلك، أما غير الفقه فقد جاء به تبعاً، لا بأصالة. وهذا أمر مهم جداً: فحين تكون السنة فقهاً شيعياً، وحين تكون مصدراً للفقه شيعياً آخر.

فكونها فقهاً- وإن لم يخرجها من دائرتي الحجية والإلزام لكنه يضعها في ذات الموقع الذي وضعها القرآن المجيد فيه بحيث يكون القرآن -وحده- المصدر المنشئ للأحكام والكاشف عنها، والسنة مصدر مبين على سبيل الإلزام. وقد يقول قائل: إن هذا يجعل الخلاف لفظياً، لكننا نؤكد أن الخلاف معنويٌّ فما نتبناه ونؤمن به وندين الله به مؤداه أن القرى، المجيد مع تفرد بإنشاء الأحكام والكشف عنها، فإنه يكون مصدقاً على السنة، ومهيماً عليها مثل تراث النبيين كافة.

كما ان ذلك يجعل السنن على مراتب في الأولويات: فالمرتبة الأولى- هي السنن التي تمثل الفقه النبوي ف تطبيقات الأحكام وهي تدور حول الأحكام حيث دارت.

وأعلى مراتب البيان: هو البيان القرآني وتفسيره: وهو تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسير القرآن بالسنة، وهو فيما عدا هما تفسير وتطبيق آيات الاحكام قليل محدود؛ فإن البخاري نفسه لم يخرج في التفسير أكثر من خمسين ومائة حديث ثم تأتي الأحاديث المتعلقة بالسير والزهد والرفاق- مواضع درس وعظة واعتبار، لا مواضع أحكام ملزمة. وإن هذا من شأنه أن يسقط كثيراً من أسباب الجدل التي دارت ولا تزال تدور حول السنة نتيجة ذلك الخلط الذي جاء المتأخرون به بين السنن ووضعها كلها في دائرة واحدة، ومنحها صفة الإطلاق في كل ما تناولته.

منهج البخاري:

فجاءت مقولة عدالة الصحابة²⁷ وعدم جواز إخضاع أي منهم لمقاييس الجرح والتعديل حتى وان خالف ذلك مسلك الشيعيين أبي بكر وعمر ومن بعدهما علي بن أبي طالب²⁸.

²⁶ رسالة الدهلوي في شرح أبواب تراجم البخاري، مرجع سابق، المقدمة.

²⁷ أنظر: ماجاء في سيرة عمر بن عبد العزيز في منعه عن شتم علي بن أبي طالب على منابر المساجد، أو أي من الصحابة، سيرة عمر بن عبد

العزيز، رواية أبي الحكم عن مالك

- ابراهيم فوزي، تدوين السنة،

²⁸ أنظر الإمام الرازي، المحصول، ج4، ص300-350.

جاء في الرسالة للشافعي عن أقاويل الصحابة: رأيت أقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تفرقوا فيها؟ فقلت: نصير منها إلى ما وافق الكتاب أو السنة، أو الإجماع، أو كان أصح في القياس. أفرأيت إذا قال الواحد منهم القول لا يحفظ عن غيره منهم فيه له موافقة ولا خلافاً- أتجد لك حجة بأتباعه في كتاب أو سنة أو امر أجمع الناس عليه، فيكون من الأسباب التي قلت بها خبراً؟ قلت: ما وجدنا في هذا كتاباً ولا سنة ثابتة، ولقد وجدنا أهل العلم يأخذون بقول واحدهم مرة ويتركونه أخرى، ويتفرقوا في بعض ما أخذوا به منهم. قال: فيلى أي شئى صرت من هذا؟ قلت: إلى اتباع قول واحد، إذا لم أجد كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً ولا شيئاً في معناه يحكم له بحكمه، أو وجد معه قياس. وقل ما يوجد من قول الواحد منهم لا يخالفه غيره من هذا.

ونقل الإمام الرازي: في خبر الواحد إذا تكاملت شروط صحته، هل يجب عرضه على الكتاب؟

قال الشافعي رضي الله عنه: لا يجب، لأنه لا تتكامل شروطه، إلا وهو غير مخالف للكتاب.

وعند عيسى بن أبان: يجب عرضه عليه، لقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا روي لكم عني حديث، فاعرضوه على - كتاب الله تعالى- فإن وافقه فاقبلوه، وإلا فردوه"²⁹.

إذا روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه عمل بخلاف موجب الخبر: فالخبر إما أن يكون متناولاً للرسول صلى الله عليه وسلم أو غير متناول له.

فإن لم يتناوله: لم يخل من أن³⁰ يكون قد قامت الدلالة على أن حكمنا وحكمه صلى الله عليه وسلم فيه سواء، أو لم تقم الدلالة على ذلك.

فإن لم يقم عليه دليل جاز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم مخصوصاً بهذا الحكم، وعلى هذا التقدير: لا يكون بين فعله وبين الخبر تناف: فلا يرد الخبر لأجله. وإن قامت الدلالة على أن حكمه صلى الله عليه وسلم - وحكمنا فيه سواء: نظر في الخبرين، فإن أمكن تخصيص أحدهما بالآخر: فعل. وأن لم يمكن - كان أحدهما متواتراً: عمل بالتواتر. وإن لم يكونا متواترين: عمل فيهما بالترجيح.

الأسباب التي دعت الى الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم بين المتقدمين والمتأخرين:

- أما السلف فهم منزهون عن تعمد الكذب إلا أنه لو وقع منهم ذلك فهو على وجوه:
- أن يكون الراوي يرى نقل الخبر بالمعنى، فيبدل مكان اللفظ آخر لا يطابقه في معناه وهو يرى أنه يقوم مقامه.
- أنهم لا يكتبون الحديث في الغالب فإذا قدم العهد فرموا نسي زيادة يصح بها الخبر.

²⁹ أنظر: الإمام الرازي، المحصول، ج4، ص438.

³⁰ أنظر: الإمام الرازي، المحصول، ج4، ص436-437.

ربما أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وهو يروي متن الخير، ولم يذكر إسناده إلى غيره: فيظن أن الخير من جهته صلى الله عليه وسلم ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يستأنف الحديث إذا أحس بداخله، ليكمل له: ومن ذلك ما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: "الشؤم في ثلاث: المرأة والدار والفرس" فقالت عائشة: "إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حكاية عن غيره".

ربما خرج الحديث عن سبب، وهو مقصور عليه، ويصح معناه به وما هذا سبيله ينبغي أن يروى مع سببه، فإذا لم يعرف سببه أو هم الخطأ: كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: "التاجر فاجر" فقالت عائشة: "إنما قال ذلك في تاجر دلس". عليهم ما روي أن أبا هريرة كان يروي أخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكعب يروي أخبار اليهود، والسامعون ربما البس ذلك، فرووا في الخبر: أنهم سمعوا من أبي هريرة، وإنما سمعوا من كعب الأخبار. أما سبب الكذب في الأخبار من جهة الخلف:

– أن الملاحدة وضعوا الأباطيل ونسبوها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تنفيراً للعقلاء منه كما يروى ذلك عن عبيد الكرم بن أبي العوجاء.

– ما قيل: أن الإمامية يسندون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كل ما صح عند أئمتهم، قالوا: لأن جعفر بن محمد قال: "حدثني أبي وحدثني جدي، وحدثني أبي وجدي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حرج عليكم إذا سمعتم مني حديثاً أن تقولوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

– أن يكون الراوي يرى جواز الكذب المؤدي إلى صلاح الأمة.

ثم روج لمقولة خير القرون وعززت بكل ما يؤدي إلى تحويلها إلى عقيدة. ثم طرحت بعد ذلك قضية الفرقة الناجية، وحددت بإنها (ما عليه أنا وأصحابي)، ولم تتوقف عملية طرح ما يعزز ذلك حتى التجديد مفهوم تحول إلى هذا المساق ليكون التجديد منحصراً في اشخاص معينين، فمجدد القرن الأول عمر بن عبد العزيز، ومجدد القرن الثاني الإمام الشافعي، وهكذا.... ومن المعروف أن للافكار سيورة تاريخية³¹ لا تفهم أحيانا بدونها وحين يتم تجاهل تاريخ الأفكار أو تجاوزه لاي سبب من الاسباب فان تلك الافكار تتحول الى مبادئ عامة وربما تتحول الى معتقدات راسخة أو ما نسميه اليوم -أيديولوجيا- فإذا حاول الباحثون تحريكها وإعادة وضعها على قضبان السيورة التاريخية فانهم يجدون من المفارقة ما يجده الذين يحاولون تغيير المبادئ الثابتة والعقائد الراسخة. وتلك هي مشكلتنا اليوم ونحن نتناول هذه القضايا، فلم يعد يسعنا ما يسع الشيخين أبا بكر وعمر من مناقشة مرويات الصحابة، بل لم يعد يسع المسلمون اليوم أن يجروا مناقشة مرويات ما عرف بالكتب الستة أو التسعة، فأبي شيبه يرد في هذه الكتب يعد أمراً قد اجتاز القنطرة وليس لأحد أن يقول فيه ما لم يقله الأولون .

³¹ إرجع في ذلك إلى كتب الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله تعالى وخاصة: كتاب مشكلات الحضارة مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د.

بسام بركة، د. أحمد شعبو، اشراف وتقديم: عمر مسقاوي، دمشق، دار الفكر، ط1، 1988م.

وهذا الأمر الذي يحتاج منا الى أن نفتح الابواب لمناقشته والبحث فيه، فإن هذه الأبواب إذا لم تنضح على أيدي الباحثين الجادين المخلصين فإنها ستكسر بعنف وبقوة على أيدي غيرهم، كما فعل المستشرقون في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن.

9- الصحابة، التعريف والاختلاف فيه:

اللغة:

الصحبة³² في اللغة يتحقق مدلولها في شخصين بينهما ملابسة ما، أو اشخاص بينهم ملابسة ما كثيرة أو قليلة، حقيقية أو مجازاً.

جاء عند الأصفهاني تعريف صحب: صاحب الملازم إنساناً كان أو حيواناً أو مكاناً أو زماناً ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن وهو الأصل والأكثر أو بالعناية والهمة، ولا يقال في العرف إلا لمن كثرت ملازمته. ويقال للمالك للشيء هو صاحبه وكذلك لمن يملك التصرف فيه، قال { إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا.. } { قال له صاحبه وهو يحاوره } (الكهف:37)، { أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا } (الكهف:9)، { وأصحاب مدين .. }، { أصحاب الجنة هم فيها خالدون } { أصحاب النار هم فيها خالدون }، { من أصحاب السعير }، وأما قوله { وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة } أي الموكلين بما لا المعدين بما كما تقدم. وقد يضاف الصاحب إلى مسوسه نحو صاحب الجيش وإلى سائسه نحو صاحب الأمير. والمصاحبة والاصطحاب أبلغ من الاجتماع لأجل أن المساحبة تقتضي طول لبثه فكل اصطحاب اجتماع وليس كل اجتماع اصطحاباً، وقوله { ولا تكن كصاحب الحوت }، وقوله { وما بصاحبكم من جنة }، وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم صاحبهم تنبيهاً أنكم صحبتموه وجرتموه وعرفتموه ظاهره وباطنه ولم تجدوا به خبلاً وجنة، وكذلك قوله: { وما صاحبكم بمجنون }. والإصحاب للشيء الانقياد له وأصله أن يصير له صاحباً. ويقال: أصحب فلان إذا كبر ابنه فصار صاحبهن وأصحب فلان فلاناً جعل صاحباً له، قال { ولا هم منا أصحابون } أي لا يكون لهم من جهتنا ما يصحبهم من سكينه وروح وترفيق ونحو ذلك مما يصحبه أوليائه، وأديم مصحب أصحاب الشعر الذي عليه ولم يجز عنه³³.

يقول تعالى "فقال لصاحبه وهو يحاوره" (الكهف:34) "قال له صاحبه وهو يحاوره" (الكهف:37) فقضى بالصحبة مع الاختلاف في الإسلام الموجب للعداوة. وقال تعالى "يا صاحبي السجن"، وقال تعالى "والصاحب بالجنب" (النساء:36) وهو الموافق في السفر، أو الزوجة، ويدخل في هذه الآية الملازمة وغيره. ولو صحب الإنسان رجلاً ساعة من نهار، أو لازمه في بعض الأسفار لدخل في ذلك، لأنه يصدق أن يقال: صحبت فلاناً في سفري ساعة من نهار.

جاء في الكفاية: قال كان سعيد بن المسيب يقول: الصحابة لا نعدهم إلا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين. قال ابن عمرو: رأيت أهل العلم يقولون: "كل من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد

³² أنظر النووي في تهذيب الأسماء واللغات، 174/1/2.

³³ أنظر: الأصفهاني، المفردات، ص275.

أدرك الحلم وأسلم، وعقل أمر الدين ورضيه، فهو عندنا ممن صحب النبي صلى الله عليه وسلم ولو ساعة من نهار، ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم في الإسلام".

معنى الصحابي عند المحدثين:

ولقد اختلف العلماء في تعريف الصحابي:

تعريف سعيد بن المسيب: (الصحابة لا نعدهم إلا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين).

أخبرنا أبو بكر البرقاني: قال: قلت لأحمد بن حنبل: عامر بن مسعود القرشي له صحبة؟ قال لا أدري، قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال الحسين بن أدريس: وسمعت أبا داود يقول: سمعت مصعباً الزبيري يقول: له صحبة - يعني عامر بن مسعود - وكان أمير ابن الزبير على الحرب بالكوفة، وكان عبدالله بن يزيد الخطمي على الصلاة، قال: وليست للخطمي صحبة، كان صغيراً حين مات النبي صلى الله عليه وسلم³⁴.

قال ابن عمرو الواقدي: (رأيت أهل العلم يقولون: كل من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أدرك الحلم فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممن صحب النبي صلى الله عليه وسلم ولو ساعة من نهار، ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم في الإسلام³⁵).

والرؤية عند أنس بن مالك رضي الله عنه لا تكفي لتجعل الرائي صحابياً، روى شعبة بن موسى السبلي وأثنى عليه خيراً، قال: قلت: لأنس بن مالك: هل بقي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد غيرك؟ قال ناس من الأعراب رأوه، فأما من صحبه فلا، رواه مسلم بحضرة أبي زرعة³⁶.

قال أبو بكر الباقلاني (403هـ): "لا خلاف بين أهل اللغة في أن القول "صحابي" مشتق من الصحبة، وأنه ليس بمشتق من قدر منها مخصوص، بل هو جار على كل من صحب غيره، قليلاً أو كثيراً،.. وكذلك يقال: صحبت فلاناً حولاً ودهراً وسنة وشهراً يوماً وساعةً، وذلك يوجب في حكم اللغة إجراء هذا على من صحب النبي صلى الله عليه وسلم، ولو ساعة من نهار، وهذا هو الأصل في اشتقاق الاسم، ومع هذا فقد تقرر للأمة عرف في أنهم لا يستعملون هذه التسمية إلا فيمن كثرت صحبته، وأتصل لقاءه، ولا يجرون ذلك على من لقي المرء ساعة ومشى معه خطأ، وسمع منه حديثاً، فوجب لذلك ألا يجري هذا الاسم في عرف الاستعمال إلا على من هذه حاله".

34 الكفاية، مرجع سابق، ص 98 وما بعدها

35 الكفاية، مرجع سابق، ص 99 وما بعدها.

36 أنظر: 1- الخطيب البغدادي، الكفاية، مصر، دار الكتب الحديثة، ص 99 وما بعدها.

قال ابن حجر: الصحابي من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به، ومات على الإسلام، فقوله "من لقي" يدخل في الصحابة من كالت مجالسته أو قصرت ومن غزا أو لم يغز. وقوله: "مؤمناً به" خرج به من لقيه كافراً ثم أسلم بعد ذلك ولم يجتمع به صلى الله عليه وسلم بعد الإسلام³⁷.

ويخرج التقييد بالموت من لقيه مؤمناً به ثم أرتد ومات على رده . ويدخل فيه من أرتد وعاد إلى الإسلام قبل أن يموت، سواء أجمع به النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى أم لا.

وقال علي المديني الإمام³⁸: من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه ولو ساعة من نهار، فهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

ويخرج بقيد الإيمان من لقيه كافراً، ولو أسلم بعد ذلك إذا لم يجتمع به مرة أخرى، والتقييد به صلى الله عليه وسلم يخرج من لقيه مؤمناً بغيره كمن لقيه من مؤمني أهل الكتاب قبل البعثة وكذلك يدخل الإنس والجن (أي المكلفون).

وهذا المذهب في تعريف الصحابي هو مذهب عامة أهل الحديث والحققين: ((أنه كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم **كذا قال ابن الصلاح**، ونقله عن البخاري وغيره، حيث قال البخاري في صحيحه: (ومن صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه)).

وكذلك اختلفوا في هل يشترط في الرائي التمييز حتى لا يدخل من رآه وهو لا يعقل، والأطفال الذين حنكهم ولم يروه بعد التمييز، لم يذكروه أيضاً، إلا أن العلائي قال في المراسيل: عبد الله بن نوفل حنكه النبي صلى الله عليه وسلم ودعا له ولا صحبة له، بل ولا رؤية أيضاً، كذا قال في عبد الله بن أبي طلحة الانصاري، والظاهر كما أشار إليه العراقي في النكت كلام الائمة ابن معين وأبي زرعة وأبي حاتم وأبي داود وغيرهم اشترطه، فانهم لم يثبتوا الصحبة لأطفال حنكهم النبي صلى الله عليه وسلم. وجاء أيضاً في عبد الله بن سرجس أنه قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم، غير أنه لم يكن له صحبة³⁹.

- أما جمهور الأصوليون والمعتزلة كأبي الحسين البصري، والكنيا الطبري وأبن فورك. : فإيراعي كثير منهم دلالة العرف في معنى الصحبة، فيطلقون اسم الصحابي على "من طالت مجالسته للنبي صلى الله عليه وسلم وكثرت مصاحبته على طريق التبعية له والأخذ عنه". وهو مروى عن سعيد بن المسيب فقد كان يقول: "الصحابة لا نعدهم إلا من أقام مع رسول الله صلى الله

³⁷ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج1، ص10.

2- ام الصلاح، علوم الحديث،

3- البخاري، صحيح البخاري، وهذا التعريف مأخوذ من كلام البخاري في صحيحه أول فضائل الصحابة.

³⁸ أنظر: شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي، 167/1،

2- البخاري، فتح الباري، 5/7.

³⁹ الخطيب البغدادي، الكفاية، ص99.

عليه وسلم سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين⁴⁰. وقالوا ذلك معنى الصحابي لغة، ورد بإجماع أهل اللغة على أنه مشتق من الصحبة، لا من قدر منها مخصوص. وعن بعض أهل الحديث موافقة ما ذكر عن أهل الأصول: لما رواه ابن سعد باسناد جيد في الطبقات عن علي بن محمد عن شعبة عن موسى السيلاني قال: أتيت أنس فقلت له: أنت آخر من بقي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قد بقي قوم من الأعراب فأما من أصحابه فأنا آخر من بقي⁴¹.

- لقد انتقد بعض علماء الحديث هذا التعريف كما ذكر ابن الصلاح⁴² "لكن في عبارته ضيق يوجب ألا يعد من الصحابة جرير بن عبد الله البجلي، ومن شاركه في فقد ظاهر ما أشرت به فيهم ممن لا نعرف خلافاً في عده من الصحابة⁴³". وقد أختار أهل الحديث هذا التوسع نظراً إلى شرف النبي صلى الله عليه وسلم وعظيم بركته التي تحصل للمؤمن إذا لقيه، فأعطوا كل من لقيه مؤمناً به حكم الصحبة⁴⁴.

ما قاله ابن القاسم: "...أن المراد بهم الصحابة -الذين استوطنوها مدة يطلع فيها على الوحي والمراد منه بمخالطة أهلها- الذين شهدوا ذلك"..... ثم قال: "وبالجمل فيحتمل أن لا يتقيد الحكم بالسكانين بخصوص بيوت المدينة، بل يشمل النازلين حولها في نحو قباء والعوالي، إذا كان لهم تردد على المدينة بحيث يطلعون -معهم- على الوحي، وما يتعلق به⁴⁵".

ولقد وقع التفاضل بين الصحابة عند علماء الحديث وقد قسم ابن حان والحاكم الصحابة إلى طبقات فأبن سعد جعلها خمساً والحاكم وابن حان جعلها اثنتي عشرة طبقة.

- 1- من تقدم إسلامه. 2- أصحاب دار الندوة.
 - 3- المهاجرة إلى الحبشة. 4- أصحاب بيعة العقبة الأولى.
 - 5- أصحاب بيعة العقبة الثانية. 6- المهاجرون الذين وصلوا إليه صلى الله عليه وسلم بقباء قبل دخول المدينة.
 - 7- أهل بدر. 8- المهاجرون بين بدر والحديبية.
 - 9- أهل بيعة الرضوان. 10- المهاجرون بين الحديبية وفتح مكة.
 - 11- مسلمة الفتح. 12- من رأى النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.
- ولقد ذكر العلماء ضوابط يعرف بها الصحابي⁴⁶:

40 الخطيب البغدادي، الكفاية، ص99.

41 السيوطي، تدريب الراوي، شرح وتعليق/ أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2/123 وما بعدها.

42 ، ابن الصلاح، علوم الحديث ، ص264.

43 د. نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، بيروت، دار الفكر، ط3، 1997م، ص117.

44 المرجع السابق، ص117.

45 أنظر: المحصول في علم الأصول، مرجع سابق، ج4/167. وقيل: وأدعى أبو العباس بن تيمية: أنه مذهب الشافعي وأحمد. وقال جده: محمول على إجماع المتقدمين من أهل المدينة، وحكى عن يونس بن عبد الأعلى قال: قال لي الشافعي: "إذا وجدت متقدمي أهل المدينة على شيء، فلا يدخل قلبك شك أنه الحق، وكلما جاءك شيء غير ذلك - فلا تلتفت إليه، فلا تعبأ به فقد وقعت في البحار واللجج"

- التواتر، بأن ينقل إثبات صحبته عن عدد كثير من الصحابة، كالخلفاء الراشدين، وكبار الصحابة المعروفين لدى الخاصة والعامة.

- الشهرة والاستفاضة الفاصرة عن رتبة التواتر، كعكاشة بن محصن.

- أن يروى عن واحد من الصحابة أن فلاناً له صحبة مثل حممة الدوسي، شهد له أبي موسى الأشعري.

- أن يروى عن أحد التابعين أن فلاناً له صحبة.

- أن يقول عن نفسه أنه صحابي وهذه بشرطين: أن يكون ثابت العدالة، وأن يكون في المدة الممكنة.

الآيات التي وصفت أو ذكر فيها الصحابة:

- سورة الفتح (1-29): "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل الشكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة بأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً، وعدكم الله مغامم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً..... محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا".

- "يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض (...)

- الآيات السابقة لهذه الآية تفصل صفات وخصائل الأعراب (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم رضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) (التوبة: 100) {ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم.... وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم}. آيات سورة التوبة بالإضافة إلى آيات سورة النور والأحزاب والجزء الثامن والعشرون، وآيات أخرى هل يمكن من خلالها تكوين تصور عن الصحابة والمجتمع الإسلامي آنذاك؟

- (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون. والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم. ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون

لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتهم لننصركم والله يشهد أنهم لكاذبون....} (الحشر: 8-13).

أخرج الإمام أحمد في المسند من حديث العرياض بن سارية -رضي الله عنه- قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون، ووجلّت منها القلوب، قلنا: يارسول الله إن هذه الموعظة موعظة مودع فماذا تعهد اليها؟ قال: "قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين" وأخرجه بلفظ آخر وفيه: "...وعضوا عليه بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة"⁴⁷

عدالة الصحابة والمذاهب فيها:

جاء في المحصول عن عدالة الصحابة فيه مذاهب⁴⁸:

المذهب الأول: أن الأصل فيهم العدالة، إلا عند ظهور المعارض للكتاب والسنة، استند أهل هذا المذهب إلى الآية القرآنية {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً}، وقوله تعالى (لقد رضي الله عن المؤمنين)، وقوله {والسابقون السابقون} (الواقعة:). {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم رضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً ذلك الفوز العظيم} (التوبة: 100).

أما السنة فقولته صلى الله عليه وسلم (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وقوله "لا تسبوا أصحابي" عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مهما أوتيتم من كتاب الله فالعمل به لا عذر لأحدكم في تركه، فإن لم يكن في كتاب الله فسنة مني ماضية، فإن لم تكن سنة مني ماضية فما قال أصحابي، إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء، فأياها أخذتم به اهتديتم، واختلاف أصحابي لكم رحمة".

المذهب الثاني: الطعن في عدالة الصحابة:

يقول الخطيب البغدادي في كتاب الكفاية: "وذهبت طائفة من أهل البدع إلى أن حال الصحابة كانت مرضية إلى وقت الحروب التي ظهرت بينهم وسفك بعضهم دماء بعض، فصار أهل تلك الحروب ساقطي العدالة، ولما أختلطوا بأهل النزاهة وجب البحث عن أمور الرواة منهم، وليس في أهل الدين والمتحققين بالعلم من يصرف إليهم خبر ما (لا) يحتتمل نوعاً من التأويل وضرباً من

⁴⁷ أنظر: في تخريج الأحاديث: المحصول، مرجع سابق، ج 4/175

⁴⁸ جاء في الصارم المسلول لابن تيمية عن موضوع شتم الصحابة من الممكن الاستفادة منه ص 572 وما بعدها.

الاجتهاد، فهم بمثابة المخالفين من الفقهاء المجتهدين في تأويل الأحكام لإشكال الأمر) والتباسه، ويجب أن يكون على الصل الذي قدمناه من حال العدالة والرضا، وإذا لم يثبت ما يزيل ذلك عنهم.

ومن قال بعدم إطلاق عدالة الجميع:

النظام قد استند إلى مسائل عديدة تؤاخذ الصحابة وتناقض بعضهم بعضاً.

الخوارج فقد طعنوا في الصحابة رضي الله عنهم ولعن مبغضهم من وجوه:

أحدها: رأيانهم قبلوا خبر الواحد على مناقضة كتاب الله تعالى وذلك يوجب القطع بفساد ذلك الخبر، والطعن في العامل به. بيانه: أن الله تعالى ذكر أنوار المعاصي: من الكفر والسرقه والقتل، فلما ذكر الزنى - استقصى الكلام فيه، فإنه تعالى نهي عنه فقال تعالى (ولا تقربوا الزنى)، ثم أوعد عليه بالنار، كما صنع وبجميع المعاصي، ثم ذكر الجلد، ثم خصه بإحضار المسلمين، وبالنهى عن رحمته، والرأفة عليه بقوله تعالى (ولا تأخذكم به رأفة في دين الله) ثم جعل على من رمى مسلماً بالزنى ثمانين جلدة، ولم يجعل ذلك على من رماه بالقتل ولا بالكفر وهما أعظم. ثم قال (ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون)، ثم ذكر من رمى به زوجته، وبين هناك أحكام اللعان، وقال: (والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) ثم خصه بأن جعل الشهود عليه أربعاً، فمع هذه المبالغة العظيمة، كيف يجوز إهمال ما هو أجل أحكامها، وأعظم مراتبها وهو الرجم. ثم أنه تعالى ذكر آيات نافية للرجم:

- قوله تعالى (والزانية والزاني فاجلدوا)، وهذا صريح في وجوب الجلد على كل الزناة، وصريح في نفي الرجم.

- وقوله تعالى (فعلين نصف ما على المحصنات من العذاب)، والرجم لا نصف له.

- وهو الدلالة العقلية: أن الرجم لو كان مشروعاً لوجب أن ينقل نقلاً متواتراً، لأنه من الوقائع العظيمة، فحيث لم ينقل: دل على أنه غير مشروع. ثم أنهم قبلوا خبر الواحد في الرجم مع كونه على مناقضة هذه الأدلة الشرعية والعقلية: فكان الطعن متوجهاً قطعاً.

ثانيها: رويتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج يوماً على أصحابه وهم يكتبون أحاديث من أحاديثه فقال: "ما هذه الكتب، أكتاباً مع كتاب الله تعالى؟ يوشك أن يقبض الله تعالى بكتابه، فلا يدع في قلب ولا رق منه شيئاً إلا أذهبه"⁴⁹. ورويتم أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا حدثتم بحديث فأعرضوه على كتاب الله تعالى - فإن وافقه فاقبلوه، وإلا فردوه"، ثم قلتهم يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، ويحرم نكاح المرأة على عمتها وخالتها وبنات أخيها وبنات أختها، مع قوله تعالى (وأحل لكم ما وراء ذلك).

⁴⁹ أخرجه الخطيب البغدادي في كتابه (تقييد العلم) ط دمشق (1949) ص 34. وأنظر نحو هذه الروايات في جامع بيان العلم، الخيب البغدادي، (63/1) وما بعدها. والسنة قبل التدوين عبد الكريم الخطيب، ص 303. وبحوث في تاريخ السنة المشرفة (141) وما بعدها، والسنة ومكانتها في التشريع (58) وما بعدها، ودراسات في الحديث (71).

وكيف يجلد العبد على الزنى خمسين، وإنما ذكر الله تعالى (والذين يرمون المحصنات)، ولم يذكر تعالى حراً ولا عبداً؟

تقديس الصحابة:

إنه لا بد من دراسة الأحاديث التي رويت فيما بعد والتي كان لها آثارها على الأمة آنذاك وحتى يومنا هذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم "خير أمتي القرن الذين يلونني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته". وفي صحيح مسلم سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس خير؟ قال: "القرن الذي بعثت فيهم، ثم الثاني ثم الثالث".

هل من الممكن أن يجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الإجابة من غير أن يضم مبادئ القرآن الأساسية في التفضيل؟ وهل من الممكن أن يكون التفضيل عام لجميع أهل القارن وماذا عن من يضل؟ وماذا عن الفرق المتفرقة آنذاك والتي فرقت بين المسلمين؟ لقد استخدم ابن تيمية حديث القرون الثلاثة في تأكيد صحة مذهب أهل المدينة ومذهب مالك لأنه من القرون الثلاثة. (وفي القرون التي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مذهب أهل المدينة أصح مذاهب أهل المدائن، فإنهم كانوا يتأسون بأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن إجماع أهل المدينة على أربعة مراتب) فتاوى ابن تيمية ج20/ص304 وما بعدها.

1- ما يجري مجرى النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل نقلهم الصاع والمد، وترك صدقة الخضروات والأحباس...

2- العمل القديم بالمدينة قبل مقتل عثمان بن عفان فهذا حجة في مذهب مالك وهو المنصوص عن الشافعي .

3- إذا تعارض في المسألة دليلان كحديثين وقياسين جهل أيهما أرجح، وأحدهما يعمل به أهل المدينة، فمذهب مالك والشافعي أنه يرجح بعمل أهل المدينة، ومذهب أبي حنيفة أنه لا يرجح بعمل أهل المدينة.

4- فهي العمل المتأخر بالمدينة وهو ليس حجة شرعية يجب اتباعها عند أئمة الفقهاء. ولذلك فقد عرض الرشيد على مالك أن يجمع الناس على مذهب أهل المدينة فرفض وقال: أن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الأمصار، وإنما جمعت علم أهل بلدي.

العدالة تنفي الكذب المتعمد ولا تستطيع أن تنفي الوهم أو الدقة في النقل، لأنه يمكن أن يكون عدل ولكن لا بد من التحقق من حديثه، فالعدالة تنفي الكذب والقصد السيئ ولكن لا تنفي أي شئ له علاقة بالضعف الإنساني. ووضع العدالة كبديل عن التحري عن الراوي غير صحيح منهجياً لما فيه من التعميم الذي يضلل المنهج.

تطبيق المقاييس التي طوّل بها من جاء بعد الصحابة على الصحابة أنفسهم من باب التحقق من الرواية وليس في ذلك نفي لعدالتهم رضوان الله عليهم والدليل في ذلك أنه منهج الشيخين أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. (أما أني لا أهتمك ولكنها الرواية) وقال علي: "عندما أنقل كمحارب فلا تأخذوا مني ولكن عندما أروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا عني".

الخطوات المنهجية في التحري:

الخطوة المنهجية الأولى: صحة الإسناد

التحري عن السند (التثبت من أن السند جيد يوثق به، ويضمن لعدم الكذب فيه) أن يكون عدل تام الضبط متصل السند إلى منتهاه.

الخطوة المنهجية الثانية: صحة المتن فإذا غلب على الظن أن هذا الحديث قد صح إسناده وذلك من حيث كون الحديث عالي أو نازل، ثم يخضع لمقاييس المتن التي حددها المحدثين. فإن اجتاز الخطوتين السابقتين تأتي الخطوة التالية.

الخطوة المنهجية الثالثة: السلامة من المعارض، وذلك عدم وجود آية قرآنية أو حديث نبوي على خلاف ما دل عليه الحديث الذي تحت الأختبار، وذلك بإعادة النظر في هذه المعارضة

الخطوة الرابعة: السلامة من الشذوذ والعلة والقاحلة.

أن أهم ما نريد الحديث له: هو (الأحكام الشرعية) يحتكم فيها إلى الأئمة المجتهدين وذلك بالمنهج الذي أتبعه المجتهدون أمثال أبي حنيفة ومالك وغيرهما.

شروط الراوي: جاء عن ابن الصلاح: "أجمع جماهير أئمة الحديث والفقهاء على أنه يشترط فيمن يحتج بروايته أن يكون عدلاً ضابطاً لما يروي. وتفصيله: أن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً سالماً من أسباب الفسق وخوارم المروءة \، متيقظاً غير مغفل، حافظاً إن حدث من كتابه، وإن كان يحدث بالمعنى اشترط فيه مع ذلك أن يكون عالماً بما يحيل المعاني". يقول نور الدين عتر: والصفات التي ذكرها العلماء تنحصر في أمرين: العدالة والضبط.

معنى العدالة: وهي ملكة تحمل صاحبها على التقوى، وأجتناب الأذناس وما يخل بالمروءة عند الناس. ويشترط فيها الأمور الآتية:

1- الإسلام، 2- البلوغ، 3- العقل، 4- التقوى، 5- الإتيان بالمروءة وترك ما يخل بها، وهو كل ما يحط من قدر الإنسان في العرف. أما الكبائر فركوبها فسق قطعاً، وكذا الإصرار على الصغائر، لأن الإصرار يجعلها كبيرة. ودليل اشتراط التقوى⁵⁰ {واشهدوا ذوي عدل منكم...}، وقوله تعالى {ومن ترضون من الشهداء}، وهذه الآيات

معنى الضبط: هذه الصفة تؤهل الراوي من أن يروي الحديث كما سمعه، ومراد المحدثين بالضبط أن يكون الراوي: (متيقظاً غير مغفل، حافظاً إن حدث من حفظه، ضابطاً لكتابته إن حدث من كتابه، وإن كان يحدث بالمعنى اشترط فيه مع ذلك أن يكون عالماً بما يحيل المعاني".

⁵⁰ نور الدين عتر، منهج النقد عند المحدثين، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1997م، ص 79 وما بعدها.

وقد كان التجريح بالصحابة شيئاً مألوفاً في العصر الأول للهجرة، بعد الحروب والصراعات التي حدثت بين الصحابة، وقيل أن يتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز.

وكان فضل هذا الخليفة الصالح أنه منع التجريح بالصحابة، وفرض على أئمة المساجد الدعاء لهم على المنابر، ومنذ ذلك العهد انقلب الحال إلى عكس ما كان عليه، فظهر اجماع على القول بعدالة جميع الصحابة وطهارتهم، مستندين إلى آيات القرآن التي مر ذكرها. وبالاستناد إلى هذه الآيات أصبح العلماء والفقهاء على الصحابة طابعا من القدسية، وصاروا لا يذكروهم إلا بالدعاء والرضوان عليهم⁵¹.

إن كلمة صحابي كانت في عهد رسول الله على المهاجرين الذين هاجروا مع النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وعلى الأنصار من أهل المدينة الذين نصرروا النبي صلى الله عليه وسلم وأوووه وحاربوا معه. وقد نص القرآن عليهم في الآية {السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار} {والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا}.

وعرف البخاري خرج على هذا التعريف، فعرف الصحابة بقوله: "كل من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه". ويرفض كثير من الفقهاء هذا التعريف ولا يعتبرون من الصحابة إلا منها الآيتان {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون. اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله أنهم ساء ما كانوا يعملون}. فهؤلاء المنافقون كانوا من أهل المدينة، وشاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكونوا من الصحابة، وإنما كانوا يحاربون الدعوة الإسلامية في الخفاء ويكيدون للمسلمين في السر، وقد أنذرهم القرآن وتوعدهم واستبعدهم عن مجاورة رسول الله، كما نصت عليه الآية {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة، لنغرينك بهم ثم لا يجاورنك فيها إلا قليلا}.

ويقول سعيد بن المسيب: "لا نعتبر من الصحابة إلا من أقام مع رسول الله سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين". أما الإصلاح الثاني الذي قام به عمر بن عبد العزيز فهو الأمر بتدوين السنة لوضع حد للافتراء على النبي صلى الله عليه وسلم، فأمر عماله في الأمصار بتقصي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الزهري: "كنا نكره كتابة السنة حتى أكرهنا عليها هؤلاء الأمراء". ويقول: "لم يدون أحد هذا العلم قبل تدويني" (ويقول: أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا).

⁵¹ إبراهيم فوزي، تدوين السنة، ص 96 وما بعدها.

- "وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يناقش العلماء في السنة. يقول ابو الزناد بن ذكوان القرشي(ت121هـ): رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشئ الذي ليس العمل عليه، قال: هذه زيادة ليس العمل عليها⁵²"

- (ويقول النووي في شرح صحيح مسلم: كان بين السلف من الصحابة والتابعين خلاف حول جواز كتابة الحديث، ثم أجمعت الأمة على جواز كتابته".

ولم يرد على لسان أحد من المتقدمين، قبل خلافة عمر بن عبد العزيز، أنه قال أن النبي صلى الله عليه وسلم نسخ حديث النهي عن كتابة السنة؛ فهذه المقولة ظهرت بعد عصر عمر بن عبد العزيز لتبرير جواز كتابتها. وقد بقي فقهاء كثيرون بعده يكرهون تدوين السنة، ويتمسكون بموقف الصحابة في تحريم كتابتها، وحجتهم ان الناس سيقبلون عليها ويهملون كتاب الله. يقول الضحاك بن مزاحم: " سيأتي على الناس زمان تكثر فيه الاحاديث، حتى يبقى المصحف بغيره لا ينظر اليه⁵³". وكان يقول: " لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف⁵⁴"

وكان الامام الاوزاعي لا يسره الاعتماد على الكتب والخروج عن طريق السلف، الذين كانوا يتلقون الحديث من أفواه العلماء. فهو يقول: " كان هذا العلم شيئاً شريفاً إذ كان من أفواه الرجال، يتلقونه وينداكرونه، فلما صار في الكتب نوره وصار الى غير أهله⁵⁵"

يقول ابن سيرين(ت110هـ): "كان الناس لا يسألون عن الاسناد حتى وقعت الفتنة، فلما وقعت الفتنة سألوا عن الاسناد". ويعني ذلك أن الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم بدأ يظهر وينتشر بين الناس منذ مقتل عثمان وبدء ولاية علي بن ابي طالب وخروج معاوية عليه.

- الصحابة بين القراءة والحديث:

- الصحابة وتدوين الحديث:

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونحن نكتب الأحاديث، فقال: ما هذا الذي تكتبون؟ قلنا: أحاديث نسمعها منك، قال: كتاب غير كتاب الله؟ أتدرون ما ضل الأمم -قبلكم- إلا بما أكتبوا من الكتب مع كتاب الله"

وفي حديث أبي سعيد الخدري الذي أخرجه مسلم في صحيحه في (باب التثبت من الحديث من كتاب الزهد) رقم (2298) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه"⁵⁶

⁵² ابو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي، قبول الأخبار ومعرفة الرجال، ص30.

⁵³ جامع بيان العلم، ج1، ص65.

⁵⁴ البغدادي، تقييد العلم، ص47.

⁵⁵ المرجع السابق، ص64.، جامع بيان العلم، ج1، ص68، سنن الدارمي، ج1، ص121.

⁵⁶ أنظر: المحصول في علم الاصول: ج4/338